سِلْسِلَةُ دِرَاسَاتِ أَدَوَاتِ الهَيْمَنَةِ الاسْتِعْمَارِيَّة ٤

أَدَوَاتُ الهَيمَنَةِ الثَّقَافِيَّةِ الأَمريكيَّةِ عَلَى الفِئَةِ الشَّبَابِيَّةِ

-نَمَاذِجٌ مِنَ العِرَاق-

أ. أحمد الخالصي

مَرْكَزُ بَرَاثَا للدِّرَاسَاتِ وَالبُحُوثِ
Center for Studies and Research

أَدَوَاتُ الهَيْمَنَةِ الثَقَافيَّةِ الأَمْرِيكِيَّةِ عَلَىْ الفِئَةِ الشَّبَابِيَّةِ
نمَاذِجٌ مِنَ العِرَاقِ

- أحمد الخالصي-

◆ رقم الطبعة: الأولى
◆ تاريخ الطبعة: ٢٠٢٥ م - ١٤٤٦هـ
◆ مكان الطبعة: بيروت - بغداد

الآراء المطروحة لا تعبر عن رأي المركز بالضرورة

© جميع الحقوق محفوظة للمركز

مركز براثا للدراسات والبحوث
بيروت - بغداد

Baratha Center for Studies and Research
www.barathacenter.com
barathacenter@gmail.com

سِلْسِلَةُ دِرَاسَاتِ أَدَوَاتِ الهَيْمَنَةِ الاسْتِعْمَارِيَّةِ ٤

أَدَوَاتُ الهَيمنَةِ الثَّقَافِيَّةِ الأَمريكيَّةِ عَلَى الفِئَةِ الشَّبَابِيَّةِ

-نَمَاذِجٌ مِنَ العِرَاق-

أ. أحمد الخالصي

مَرْكَزُ بَرَاثا للدِّرَاسَاتِ وَالبُحُوثِ
بَيروتُ - بَغدَادُ

سلسلة دراسات أدوات الهيمنة الاستعمارية

مـن أخطر أدوات الهيمنة، الهيمنة على العقول، وأخطر أنـواع الهزيمة، الهزيمة الحضارية، كي يترسخ في وعي الأمم المستعمَرة أن من حق الرجل الأبيض السيطرة عليها لتفوقه وتقدمه، وأن احتلاله لأرضها جاء بسـبب حالة ضعفها الشـديد حضاريًا وثقافيًا ثم عسكريا وتقنيًا، وأنّه لا فكاك أمامها إلا بالرضوخ واتباع خطوات المستعمِر، لعلها تلحق به يومًا أو تقارب مسيرته.

يرتبط مصطلح الهيمنة Hegemony بفكر الاستعمَار Colonialism وطروحاته؛ فالاستعمار الغربي كان في أقل توصيف له هيمنة على الشـعوب الضعيفـة، والتحكم في مقدراتها، ونهب ثرواتها، والسـعي للسـيطرة المطلقة على مصائرها، وأيضا محو هويتها، والتحكم في ثقافاتها، فمـن النزعة المسـيحيّة إلى النزعـة القوميّة، ومن مركزيّـة الغرب إلى النزعة الماديـة الليبرالية ومَحورية الإنسـان إلى ما بعد الحداثة وسـيولة القيَـم والمعنى! جميعها منظومات اسـتعمار حديث بهدف واحد وأثواب مختلفة.

وكـما كانت مسـوغات الاسـتعمار عددا من الشـعارات الأساسـية تظهر في قيـم ومبادئ عادة مثل: الحفاظ على النظام الاجتماعي والاسـتقرار والتقدم؛ مصحوبة باسـتدعاء الخطاب الإمبريالي الذي يتم فيه تسـويق القيم والافتراضات الفكرية والعقائد والسـلوكيات الأوروبية، انتهى الاسـتعمار إلى عمل ما يسـمى (اسـتدماج أيديولوجي) من خلال أدوات الهيمنة مثل: التعليم والإعلام والأدب، والتي تأتي محملة برؤى ظاهرة ومبطنة، لصالح الاسـتعمار، وتتسلل إلى الوعي العام لدى الشـعوب المسـتعمَرة، فلا ترضى بأقل من الاستسلام وتقليد المستعمر، أي استمرار الهيمنة من خلال تبعية الشعوب.

لذلـك قررنـا في (مركـز براثا للدراسـات والبحوث) من خلال (سلسـلة دراسـات أدوات الهيمنة الاستعمارية) أن نسـلّط الضوء على أدوات الاحتلال الحديث، بهدف فصل تشابكات الاسـتعمار الفكرية والثقافيـة في وعي ولاوعي المجتمعـات العربية والإسـلامية، ومحاكمة الافتراضات الثقافية الأوروبية التي سـادت بوصفها المألـوف أو الطبيعي أو العالمي، وإعادة النظـر إلى معايير النظر في العالم والتاريخ من وجهة نظر المنتصرين، من أجل تكوين مجتمع أقل «قابلية للاستعمار».

المُقَدِمَةُ

الهَيمنةُ من المفاهيم التي تعرَّض معناها إلى تبدُّل في دلالاته زمنيًّا، فمن جهةٍ، المعنى الإيجابيُّ الذي كان يشير إليه (أرسطو) في تناوُله لهذا المصطلح، إلى ممارسات سلبيَّةٍ تندرج تحته في الوقت الحاضر، ومن جهةٍ أُخرى تُعتبر الهيمنةُ من المفاهيم العامَّة، والتي تُستخدم في مجالات عدَّة، ولها أبعادها الخاصَّة في المَيدان الدوليّ ومسار العلاقات الخارجيَّة، أو في حقول الفلسفة والسياسة والثقافة، لكن مع تعدُّد هذه الأدوار، أخذ -المصطلح- نمطًا إشكاليًّا بحدّ ذاته، نتيجةَ زيادة الفجوة بين المعنى الأصليّ له والمعنى الشائع الذي نتصوَّره -والمرتبط بالإخضاع والسيطرة غالبًا- وبين التعريفات الأكاديميّة له. والهُوّة الواسعة بين كل ذلك مع الدلالات اللُّغوية لهذا المفهوم، والتي تتحد مع الاستخدام الواقعيّ للهيمنة من جانب القُوى الكبرى وفي مقدّمتهم الولايات المتحدَّة الأمريكيَّة، كما لو أنّ الهيمنةَ تُمارَس ضدَّنا منذ اللحظة الأُولى لفهمها؛ حيثُ نجد دلالاتٍ مختلفةً عن التطبيق الفعليّ للمفهوم، وهو ناتج -كما سنرى- من المعنى اللُّغويّ لدينا.

إنَّ الهيمنةَ هي منظومةُ عملٍ متكاملة، ومجموعةُ أدواتٍ متجانسةٍ، تعمل وَفق مساراتٍ دقيقةٍ ومحّددة، هذا الأمرُ يتطلَّب تداخلاً في كثيرٍ من الأحيان بين هذه الأدوات لتعزيز العمل، مما قد يُحدث لُبسًا في عملِ هذه المنظومةِ ككلّ. لكنَّ التدقيق في التطبيقات العمليَّة لأدواتها يُساعد في فَهمٍ أوضح للآليات والاتجاهات التي تعملُ وَفقها منظومةُ الهيمنة، وهذا ما يجعلنا ننتقل من السياق المفاهيميّ إلى الجوانب العمليَّةِ لهذا المفهوم؛ حيث قُسّمت هذه الدراسة إلى فصلين وخاتمة.

تضمَّن الفصل الأول -في كلا مبحثيه- الإطار المفاهيميّ للهيمنة وصولاً إلى تخصيص هذا المصطلح في المجال الثقافيّ، بينما بيَّن الفصلُ الثَّاني بعضَ أدوات الهيمنة المستخدمة من قبل الجانب الأمريكيّ، من خلال الانتقال من الحالات العامَّة لهذه الأدوات وصولاً إلى خصوصيَّة التطبيق لها في العراق، وتمّ ذلك من خلال تقسيم هذا الفصل إلى خمسة مباحث:

المَبْحَثُ الأَوَّلُ: السينما

المَبْحَثُ الثَّانِي: الجامعة الأمريكية

المَبْحَثُ الثَّالِثُ: البعثات الدراسية

المَبْحَثُ الرَّابِعُ: منظمات المجتمع المدني

المَبْحَثُ الخَامِسُ: منصات التواصل الاجتماعي

وكلُّ مبحثٍ أيضًا من هذه المباحث قُسّم إلى محاور عديدةٍ بحسب ما تقتضيه متطلبات البحث بشكل عام، فيما تضمنت الخاتمة بعض التَّوصيات التي رأينا من المهم ذكرها.

الفَصْلُ الأَوَّلُ:

مَفْهُومُ الْهَيْمَنَةِ

■ المَبْحَثُ الأَوَّلُ: مَفْهُومُ الهَيْمَنَةِ

أَوَّلًا: المَعْنَى اللُّغَوِيُّ:

ينصرفُ معنى الهيمنة لُغةً إلى: «القيام على الشيء، وقيل: الرقابة على الشيء، يُقال: هَيمَنَ يُهَيمِنُ هَيمَنَة، إذا كان رقيبًا على الشيء»[١]. كما يشير الفعل الاشتقاقي للهيمنة «هيمن» إلى «من آمن غيرَه من الخوف ووفر له الأمان».[٢]

كذلك جاءت كلمةُ المُهيمِن بمعنى: «الشَّاهد، وهو من آمن غيرَه من الخوف، وأصله أَأْمَنَ مُؤَأْمِنٌ، بهمزتين، قُلِبَتْ الهمزة الثانية ياء كراهيةً لاجتماعهما، فصار مُؤَيْمِنٌ، ثمَّ صُيِّرت الأولى هاء، كما قالوا: أراق الماءَ وهراقه».[٣]

---

١ - المكتبة الشاملة،كتاب موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة، (د. ت)، تاريخ الاطلاع (٢٠٢٤-١٢-١)،على الرابط الآتي: ttps://shamela.ws/book/433/668 (https://shamela.ws/book/433/668) (https://shamela.ws/book/433/668)

٢ - محمد بن إسحاق الرازي: مختار الصحاح، ص٦٩٩.

٣ - موسوعة العقيدة والأديان والفرق والمذاهب المعاصرة، حرف الميم/المهيمن، (د . ت)، تاريخ الاطلاع (٢٠٢٤-١٢-١)على الرابط التالي: .https://islamiccreed 5716/87%D8%B1%D8%B3%81%D9%84%D9%net/%D8%A7%D9

كما وردت في كثير من آيات القرآن الكريم، منها: ﴿**وأنزلنا إليك الكتابَ بالحقّ مصدّقا لما بين يديه من الكتاب ومُهَيْمِنًا عليه**﴾[المائدة ٤٨]. ﴿**هو اللّٰه الذى لا إلهَ إلا هو الـمَلِكُ القُدّوسُ السَّلامُ المؤمنُ الـمُهَيْمِنُ**﴾ [الحشر ٢٣]. وفي خِضم بيان المراد من كلمة المهيمن في هذه الآيات قال اللُّغوي (هادي حسن حمودي)[١]: «ونستبين مِـماَّ مرَّ أنَّ ‘مُهَيمنا’ هنا يمتزج فيه معنيان، معنى الرّفق والدَّعَة والأمان، ومعنى السّيطرة، وبامتزاج المعنيين يتهذّب معنى السَّيطرة لتصبح ‘سيطرة’ من نَوع خاصّ يتضمَّن الأمان والخير. فالسّيطرة -وحدها- لا تعني الهيمنة، إذ السّيطرة: التّسلّط بالقهر والغلبة والقوة، وربمّا يخالط ذلك قسوة وظلم وفظاظة، بحسب حالات السّيطرة ودوافعها».[٢]

ثَانيًا: المعْنَى الاِصْطِلَاحِيّ:

تعرَّضَ مفهوم الهيمنةِ -شأنه شأن المفاهيم الأخرى- لتعريفاتٍ عديدةٍ

---

١ - كاتب وباحث وأكاديمي عراقي، متخصّص في الشؤون العُمانية. درّس في جامعات متعددة في البلاد العربيّة والبريطانية، وهو أمين عام المجمع العلمي للبحوث والدراسات ومقرّه لندن.

٢ - هادي حسن حمودي: شيء من اللغة - الهيمنة والسيطرة -، (٢٠١٥-٩-٩)، تاريخ الاطلاع(٢٠٢٤-٢٣-١١)،على الرابط الآتي:

https://www.alquds.co.uk/%EF%BB%BF

ومختلفةٍ؛ من حيثُ امتداد نطاقِها، أو اقتصارِه، ومن حيثُ أطراف معادلتها على مستوى الأفراد أو الجماعات داخل الحدود السياسيّة لهذه الدولة. وقد اكتسبَ مفهومُ الهيمنةِ أبعادًا أُخرى في المَيدان الدوليّ، الذي يكاد يوحّد الصِيغَ الدلاليَّة لهذا المفهوم من خلال حصره في زاوية المصلحة الذاتيَّةِ للدولة التي تفرض سطوتها وهيمنتها على غيرها من الدول. ويمُكن لنا أن نحصرَ تعريفَ مفهومِ الهيمنةِ الاصطلاحي في مجاله التَّداولي في العلاقات الدولية، دون النَّظر إلى المجالاتِ الأُخرى، خاصَّةً مع الأخذ بالاعتبار أنَّ الهيمنةَ وُجدَت في التاريخ من خلال هذا السياق، بدءًا بإسبرطة اليونانيّة التي كانت دائمةَ البحثِ عن المجد وإثبات القُوة على غيرها، من خلال العمل على إخضاع الآخرين لها، كما تحقق لها ذلك من خلال انتصارها على أثينا في "البيلوبونيزية"[١]. ولعل ذلك، يفسرّ كثرةَ تناول (ثيوسيديد يس - Thucydides)[٢] لهذه الحرب حينما تعلّق الأمرُ بتنظيره عن الهيمنةِ، والذي يرجع إليه هذا المفهوم، كما أشار إلى ذلك أحدُ الباحثين: "هناك اتفاق بين الباحثين على إرجاع مفهوم الهيمنة إلى المؤرخ الإغريقي (ثيوسيديدس)"[٣].

---

١ - كانت حربًا يونانية قديمة وقعت بين الاثنيين وإمبراطورتيهم ضد العصبة البيلوبونيزية بزعامة إسبرطة في النصف الأول من القرن الخامس قبل الميلاد.

٢ - مؤرّخ إغريقى شهير، صاحب كتاب تاريخ الحرب البيلوبونيزية.

٣ - لورد حبش، الهيمنة في العلاقات الدولية: مراجعة للمفهوم في ضوء الحالة الأمريكية، ص٢٢.

وليس انتهاءً بهيمنة الأُحَادِيَّة القطبيَّة الأمريكيَّة التي نعيش في خضمها حاليًّا.

وبالرغم مما تقدَّم، لا يمكننا بأيّ شكلٍ من الأشكال نفيَ المجالات الأخرى التي تعملُ فيها الهيمنةُ، لكنَّ النقطةَ الجوهريّة هو الفضاء الدوليّ للمفهوم، من خلال عمليّاتِ الفرض والإجبارِ التي تمارسها الدول الكبرى اليوم، في تعاملِها مع البلدان والمجتمعات، خاصَّةً الإسلاميَّة منها. إنَّ الفكرةَ من تقديمِ مفهومِ الهيمنة بشكله العام وفق سياقات نظريّات العلاقات الدوليّة، متأتيّ أيضًا من أهميَّة هذا المجال في تسليط الضوء على معادلة الهيمنة وفق الواقع الذي نراه، بعيدًا عن تشتّت الفهم العام بين المجالات الأخرى، فلا يمكن أنْ تزاحمَ تعريفات الهيمنة العامة والمختلفة، أي الهيمنة في المجالات الاقتصاديّة أو السياسيَّة والعسكريَّة، والتي قد تتَّصف بكونها تحديدًا جزئيًّا لهذا المفهوم، لا يمكن لها مزاحمة السّياق الخارجيّ الذي يفرضُ نفسَه، من حقيقة الصراع الفعليّ الذي نعانيه، والمنطلق والمُوجَّه من الدول الكبرى، والذي تشكّل الساحةُ الدوليَّةُ مَيدان عمليَّاته لتحقيق الأهداف، خصوصًا في ظل التطوراتِ الهائلةِ التي أتاحها التقدُّمُ التقنيُّ والتكنولوجيُّ في الميادين كافَّة، من إمكانيةِ فرض الأنماط والرؤى بعيدًا عن التعقيداتِ الكلاسيكيَّة التي كانت تواجهها القُوى المستعمِرة سابقًا. هذا أيضا لا يعني عدم أهميَّة المجالات الأُخرى سواء في تسليط الضوء على مفهوم الهيمنة، أو كونها مهمَلة في عمليّة تمكين أمريكا أو الدول الكبرى، في فرض الهيمنة، على العكس

تمامًا، فالمجالات المذكورة: السياسيّ، والاقتصاديّ، والعسكريّ، هي الأدوات الحيويَّةُ والفاعلةُ في تعضيد هذه العمليَّةِ، وتحويلها من الفضاء التنظيريّ إلى الواقع الفعليّ. لكن، تمَّ الاكتفاءُ من الهيمنةِ في ظل المسار الدوليّ؛ كونها معبّرةً كليًّا عن تفاعل هذه المجالات مع بعضِها بعضًا، في تحقيق مصالح الطرف المهيمِن.

من هنا، يمكن لنا أن نُعبرّ عن المفهوم العام للهيمنة من خلال هذا السياق، دون الغوصِ أكثر في التعريفات العديدة لهذا المفهوم في هذا الجانب، على أنْ نوردَ بعض التعريفاتِ فقط والتي تخدم موضوعنا هذا، فمثلاً يُعرّفها (روبرت كوهين - Keohane Robert)[١] بأنَّها: «التفوّق في الموارد الماديَّةِ، وأنَّ القُوى المهيمِنة لابدَّ أن تسيطرَ على كلٍ من: المواد الخام، ورأس المال، والأسواق ...»[٢]، فيما عرّفها (جولدستين -Joshua S. Goldstein)[٣]: «إنَّ الهيمنة هي امتلاك الدولة مقومات القوّة في النسق الدولي، مما يسمح لها بالسيطرة منفردة على قواعد السلوك في العلاقات الاقتصاديّة والسياسيّة الدولية. مضافًا إلى مجموعة الأفكار التي تؤدّي إلى شرعيّة المهيمِن. وبالتالي، تقليل الحاجة إلى استخدام القوة، مثال

١ - عالم سياسي أمريكي، يعمل في مجالات العلاقات الدولية والاقتصاد السياسي الدولي، من أشهر كتبه "بعد الهيمنة".

٢ - مروة خليل: مفهوم الهيمنة في نظريات العلاقات الدولية، ص٨٠.

٣ - أستاذ فخري للعلاقات الدولية، الجامعة الأمريكية.

ذلك، هيمنة أفكار مثل الديمقراطيّة، والرأسماليّة، وسيطرة ثقافة الولايات المتحدة."[١]، فيما ذهب (جوزيف ناي - Joseph Nye)[٢]، انطلاقًا من خلفيّته الليبراليّة، وابتكاره للقوة الناعمة والقوة الذكيّة، والتي استُخدمت أساسًا في التنظير ضمن فضاء نظريّات العلاقات الدوليّة؛ كونها أنجح الوسائل وأهمّها في الميدان الخارجيّ لأمريكا. هذه الخلفيّة مهّدت لأن يكون تعريف جوزيف ناي للهيمنة، لا يعتمد بالدرجة الأساس على وجودِ القُوّةِ العسكريّة أو الصلبة منفردة في فرض الهيمنة، بل ما تمتلكه أيضًا من موارد أخرى تدعم من حالتها هذه وترسّخها؛ أي دخول المجال الثقافيّ والاقتصاديّ والفنيّ ...، أو ما يمكن صياغته وفق مزاوجة القوّتين الصلبة والناعمة معًا. وعليه، عرّف جوزيف ناي الهيمنة: «وجود قوّة مسيطِرة يكون لها التفوّقُ في جميع المصادر، وتتوافر لديها القوّة والإرادة اللازمتان لصياغة قواعد التفاعل الدوليّ»[٣]. ومع كلّ ذلك، بقي الأمرُ غير واضح المعالم على وجه الدِقَّة، حتى مع الاتجاه نحو حصر هذا المفهوم في

---

١ - مروة خليل: مفهوم الهيمنة في نظريات العلاقات الدولية، ص٨١.

٢ - أستاذ العلوم السياسية وعميد سابق لمدرسة جون كينيدي الحكومية في جامعة هارفارد، تولّى عدّة مناصب رسمية؛ منها مساعد وزير الدفاع للشؤون الأمنية الدولية في حكومة (بيل كلينتون -Bill Clinton) ورئيس مجلس الاستخبارات الوطني. اشتهر بابتكاره مصطلحي القوة الناعمة والقوة الذكيّة.

٣ - أسعد عبد الوهاب: هاشم زامل - فكرة الهيمنة الأمريكية عند جوزيف ناي وبريجنسكي -، ص٢٣.

زاوية العلاقات الدوليّة، والتي تبدو فكرةً منطقيَّةً بالنَّظر إلى كل ما ذكرناه. لكن، مازلنا نلاحظ بشكلٍ عام اضطراب المفهوم الاصطلاحي للهيمنةِ، وعدم وضوح حدوده الدلاليّة التي تفصله عن المصطلحات الأخرى؛ حيثُ جعل من الهيمنة مفردةً طيّعةً حتى مع الاستعمالات المخالفة لها، وأوصلنا إلى نتيجةٍ، مفادها: أنّ البحث عن إجابة دقيقة عن ماهيّة الهيمنة في الأدبيّات الوضعيّة، سواء أكانت في البحوث الغربيّة أم الدراسات العربيّة، زاد من اضطراب هذا المفهوم في إدراكنا المعرفي للكلمة.

إنَّ المعنى اللُّغويّ للهيمنةِ كفيلٌ في الإجابة عن هذا السؤال، وتحديد السياق الاصطلاحيّ لمفهوم الهيمنة، من خلال الدلالات التي حملها المعنى، والتي بدورها جعلت من هذه الكلمة في اللغة، مفردة معروفة الحدود والضوابط، تنفصل عن المفاهيم الأخرى دون أن تشتبك معه.

يتضحُ مما سبق، أنَّ الهيمنةَ ككلمةٍ عند سماعها، تنشأ في تلقِّينا وإدراكِنَا بدلالات مغايرة عن المعنى اللغويّ، أو يمكن لنا تسميته بالمعنى الأول للكلمة؛ أي قبل أن تنمو وتتطور سواء في سياقها الاصطلاحيّ أم التداوليّ بين الناس، أم العكس[1].

هذا الاختلاف الذي يفرضه الزمنُ في تطور معاني الكلمات أمرٌ متعارفٌ عليه وبديهيّ، وقد يُولد أيضًا من خلال الاستعمال الشعبي لها، أي التصور

١ - بأن يكون إدراكنا معنى الكلمة هو نتيجة السياق التداولي العرفي لها.

المرسوم لدى الناس حول الكلمة، ولعلَّ من أمثلة ذلك: مصطلح الدولة، والذي تختلف دلالاته المنهجيّة، عن الشائع المقصور على الحكومة عند عوامّ النَّاس. وعلى هذا الأساس، تم تعبئة مصطلح الهيمنة -تدريجيًا- بدلالات سلبيَّة، مغايرة عن الأصل اللغويّ الذي ولدت فيه، وإفراغه كليًّا من أيّ ارتباطٍ بمعناه الأَوَّلِيّ. لكنَّ الخطورة تكمُنُ في الاختلاف بين الاستعمال الواقعيّ للكلمة من قبل العدو، وبين فهمنا لها؛ إذ إنَّ الدولَ الكبرى عندما تستخدم أدواتها في تحقيق الهيمنة، تُطبّق المعنى اللُّغوي لها -أي لغتنا نحن- بينما لازلنا حبيسي دلالات شاذّة لا تنتمي إلى الأصل، ولا إلى الفهم الحديث لها، إنَّما إلى مفاهيمَ مستقلّة أُخرى يجري الخلط معها باستمرار.

وبناءً على ما تقدَّم، يمكن لنا أنْ نعيدَ التعريفَ الاصطلاحي للهيمنة بشكلٍ عام، بأنَّها: منظومة متكاملة من الموارد والأدوات، التي تمكِّن جهةً ما، من إخضاع الآخرين نفسيًّا لها، من خلال حثّهم على الاعتقاد أو الظنّ، بأنَّها الجهةُ الأكثر قدرة، والأجدر من غيرها في مختلف المجالات.

■ المبْحَثُ الثَّاني: مَفْهُومُ الهَيْمَنَةِ الثَّقَافِيَّةِ

باتَ بحكمِ البديهيات المتعارفة لدى الباحثين، وجود خلافٍ في تعريفِ المصطلحاتِ والمفاهيمَ المتداولةِ في الوسطِ الثقافيّ، حتى مع

تلك التي قد لا يُتصوَّر وجود خلافٍ حولها، كمفهوم الثقافة الذي يصعب حصره في إطار محدَّد، ومجالٍ معيَّنٍ بالذات، مع اتساع المضامين الذي يحتويه، وكونه صفةً باتت تُطلق على أمور عدّة.

لذلك، جاء تعريف (إدوارد تايلور- Edward Tylor)[١] لمفردةِ الثقافة بمفهومها الواسع في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي؛ حيث قال: « تلك الوحدة الكليَّةُ المعقَّدةُ التي تشمل المعرفةَ والإيمانَ والفنَّ والأخلاق والقانون والعادات، بالإضافة إلي أيّ قدراتٍ وعاداتٍ أخرى يكتسبُها الإنسانُ بصفته عضوًا في مجتمع ».[٢]

فيما عرَّفها (مالك بن نبيّ) بأنّها: "مجموعة من الصفات الخُلُقيَّة، والقيم الاجتماعيّة، التي تُؤثِّر في الفرد منذ ولادتِه، وتصبح لا شعوريًّا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسطِ الذي وُلد فيه"[٣].

أمَّا فيما يخصُّ الهيمنة الثقافيّة، المصطلح الذي غالبًا ما يتم إرجاعه إلى المفكّرِ الإيطالي (أنطونيو غرامشي – Antonio Gramsci)[٤] الماركسّي،

---

١ - أنثروبولوجي إنجليزي ومؤسس لعلم الأنثروبولوجيا الثقافية، من أشهر أعماله الثقافة البدائية.

٢ - قناة الميادين: في تعريف الثقافة وتأويلها، (٢٠١٩-٣-٩)، تاريخ الاطلاع (٢٠٢٤-١١-١٩)، على الرابط الآتي:

https://www.almayadeen.net/books/939417/

٣ - مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص٧٤.

٤ - منظر ماركسي معروف ومؤسس الحزب الشيوعي الإيطالي.

الذي كان يرى الأشياءَ من منظور الصراع الطبقيّ؛ حيث نظَّر (غرامشي) لهذا المفهوم في معرض إجابته عن فشلِ العُمال في القيام بالثورات الاشتراكيَّة، معلِّلاً ذلك، بهيمنةِ الثقافة البراجوزيّة على التصوُّرات العامَّة، حتى في ذهنيَّة الطبقة العاملة وبعبارة أخرى، «فإنّ تصوّرات الطبقة السائدة الثقافيّة، أي الأيديولوجيا الليبراليّة السائدة، أثَّرت في خيارات جماهير العمَّال أكثر مما كان باستطاعة (ماركس) أن يعتقد. ففي المجتمعات الصناعيّة «المتقدّمة»، أنتجت البرجوازيَّة أدواتٍ ثقافيَّةً خالقةً لهيمنةِ الطبقةِ السائدة، البرجوازيَّة»[1]

من هذا المنطلق، إنَّ مفهومَ الهيمنةِ الثقافيَّة عند (غرامشي) يتمحورُ حول السيطرة الأيديولوجيّة التي تمارسها الطبقةُ المتسيّدةُ أو الحاكمةُ على بقيَّةِ الجماعات، مما يمكّنها من الهيمنةِ على تصورات الآخرين، في الشكل الذي يجعلها تُشكل خياراتهم واتجاههم وتعاملهم مع الأشياء.

ختامًا، إنَّ ما يُهمُّنا هو الهيمنة في إطارها الدولي، لا مجرّد صراعِ طبقاتٍ داخل المجتمع الواحد، مع أهمّيَّة هذا الإطار، في تقديم صور واضحة عن طبيعة ما يجري حاليًّا، خاصةً أنَّ الدولَ التي تمارس الهيمنة، لازالت بنفس الأيديولوجيّة التي يتحدث عنها (غرامشي)، لكن مع فارق الحجم

---

١ - جوزف عبدالله: غرامشي -المجتمع المدني، الهيمنة الثقافية، المثقف الجماعي -،(٢٠١٩-٢٠-٣)، تاريخ الاطلاع(٢٠٢٤-٢٣-١١)، على الرابط الآتي:
https://al-akhbar.com/Opinion/268047.

بين المجتمع الواحد، ومجتمعات بلدان العالم، التي تختلف في طبيعة تلقيها وتفاعلها واندماجها ولغة تواصلها. كل ذلك يفرض علينا الخروج عن سياقِ هذا المفهومِ في محاولةٍ لفَهم هذا المصطلح في سياقه العالميِّ.

الفَصْلُ الثَّانِي:

بَعْضُ أَدَوَاتِ الهَيْمَنَةِ الثَّقَافِيَّةِ الأَمرِيكِيَّةِ عَلَى الفِئَةِ الشَّبَابِيَّةِ

■ المَبْحَثُ الأَوَّلُ: السِّينِما

أَوَّلًا: السَّينِمَا الأَمرِيكِيَّةُ

تُعتبر الأعمال السينمائية مظهرًا لحركيَّة النصّ الأدبيّ، خاصةً فيما يتعلق بالدراما منها، إلى جانبِ أنواعِ الفنّ الأُخرى، كما أنَّها تمُثل خلطةً من التفاعُلات الثَّقافيَّة والاجتماعية والسياسية للمجتمع، تغدو من خلالها معبرةً عنه، أو مشيرةً إلى مكامن معينة فيه، بحسب رؤية الجهات المنتجة لها.

كل شيء داخل حدودِ الدولةِ هو مرتبطٌ عضويًّا بسياستها المتبعة -سواء أكان تأييدًا أم معارضة- بشكلٍ يجعل المجالات المختلفة تصبُّ في رؤيتها الواحدة. من هنا، فإنّ علاقةَ هذا المجال ككلٍّ بالسياسة هي علاقة وثيقة تنسجم بنيويًّا وواقعيًّا بالمسار التاريخي لولادة هذا الفن، وهذا يبدو جليًّا وواضحًا منذ المسرح اليوناني إلى وقتنا الراهن. فالسينما وغيرها من وسائط التعبير الفني هي عمليَّة تجسيديَّة للنصِّ في الواقع الخارجيّ، سواء من خلال الصورةِ أو الصوت، وهذا ما يمُثّل أعلى التجلياتِ الداخليةِ للنصّ بوصفه رؤية كاتبه، المتأثر هو الآخر بتوجهات المنتج أيًّا كان،

والذي بدوره له أهدافٌ محددةٌ تُترَجم تأثيراً على المُشاهد، وهذا الأخير هو الطرف المهمُّ في هذه المعادلة؛ لأنَّه يُعتبر جزءًا من عمليةِ تقويم هذه الأعمال، مضافًا لكونه المستهدفَ الرئيسَ في عمليةِ زرعِ الأفكارِ والتوجهات التي يُراد إيصالُها له. لكن، رغم أهميَّة المُشاهد يبقى جزءًا خاملاً ومحبوسًا في إطار التلقي في معظم الأحيان.

إنَّ الهيمنةَ هي منظومةُ عملٍ متكاملةٌ، تحتاج لكلّ الأدوات الممكنةِ لتحقيق أهدافِها، ومثلما أسلفنا في تعريفها، فإنَّ التأثيرَ النَّاجمَ عن اشتغال هذا المفهوم، يتجلّى بوضوح في العاملِ النَّفسي، التي تُشكل السينما الأداةَ الأكثرَ فعاليَّة فيه، "ولعل هذا يفسر تزامن ظهور علم النفس المعملي، والتحليل النفسي الإكلينيكي مع ظهور السينما أواخر القرن التاسع عشر"[1].

إنَّ علاقة السينما بالمجالِ النفسي وثيقةٌ ومترابطةٌ، امتزجت مؤخّرًا حتى أصبحت الكاميرا تتحرَّكُ وفقَ الحالات النفسية المراد رسمها في المشهد، فضلاً عن طبيعة شخصيات العمل والأبطال، والألوان في المونتاج والصورة، وطريقة السير، والإيماءات التي تبديها الشخصيات، واتجاهات التصوير ....

إنَّ التأثيرَ النَّفسيَّ للسينما على المُشاهد، تجلى في أحد أمثلته في قصَّة

١ - محمد صلاح: إذا أردت أن تكتشف أسرار النفس البشرية شاهد هذه الأفلام، (٢٠١٩-١٢-٢٩)، تاريخ الاطلاع(٢٠٢٤-١١-٢٤)، على الرابط الآتي:
https://www.aljazeera.net/arts/201929/12//

(جون هينكلي-Joh Hinckley)[١]، الذي حاول في عام ١٩٨١، اغتيال الرئيس الأمريكي وقتها (رونالد ريغان-Ronald Reagan)[٢]، لكنَّه أصابه فقط، وبعد التحقيق معه تبين أنَّه تأثَّرَ ببطلِ فيلم «سائق التاكسي»[٣]، كما أنَّه من خلال هذه العملية، أرادَ إثارةَ اهتمام الممثلة الأمريكيَّة (جودي فوستر ـــــ Jodie Foster) والتي لعبت دورَ الفتاةِ في الفيلم أيضًا.

إنَّ المجالَ الحيويَّ الذي توفّره السينما في تكثيف عملية التأثير المفروض على المتلقين، جعلت منها محطَّ اهتمامٍ متزايدٍ وكبير من قِبل كثير من الأنظمةِ السياسيَّة في العالم، خاصةً الدولِ الكبرى منها، وما تلا فترة الحربِ العالميةِ الثَّانيةِ، من الصراع -المضمر على الأرض، والمعلن في الخطابات- بين الاتحاد السوفييتي وأمريكا على زعامة العالم؛ (أي حقبة الحرب الباردة). "كل هذه الصفات جعلت السينما محطَّ أنظار السَّاسة؛ حيث تمَّ استخدام الفيلم في الدعاية السياسيَّةِ من قِبل النظام

---

١ -مواطن أمريكي حاول اغتيال الرئيس الأمريكي (رونالدريغان) في واشنطن العاصمة في ٣٠ مارس ١٩٨١ بعد شهرين من تنصيب ريغان لأول مرة باستخدام مسدس من عيار ٢٢.

٢ - سياسي وممثل أمريكي راحل شغل منصب الرئيس الأربعين للولايات المتحدة في الفترة من ١٩٨١ إلى ١٩٨٩.

٣ - فيلم Taxi driver الذي أخرجه (مارتن سكورسيزي) عام ١٩٧٦ وقام ببطولته (روبرت دي نيرو) تمحورت قصته حول سائق تاكسي مضطرب نفسيًا يحاول اغتيال أحد الساسة الفاسدين انتقامًا لإحدى الفتيات، ولكنَّ المحاولة تفشل.

السياسي الحاكم أحيانًا، وفى بعض الأحيان الأخرى تم استخدام السينما كمجال لإبراز الأفكار المعارضة. وبذلك أضحى الفيلم مساحةً صراعيَّةً بين مختلف القوى السياسية"[١]. ولذلك، نجد في هذه الفترة البُعد السينمائيّ للحرب الباردة، من خلال الأعمال التي نشرت وكمية الأفلام المنتَجَة للفترة المحصورة بين (١٩٤٨-١٩٥٣)؛ إذ أنتجت أمريكا ما يقارب الـ٧٠ فيلمًا، وجهتها بشكل مباشر ضد الاتحاد السوفييتي. فيما تشير بعض الإحصائيات إلى أنَّ العددَ الكُلِّي قد وصل إلى ٣٠٠ فيلم: «الاتحاد السوفييتي تمَّ تفكيكه بالحرب الناعمة التي رصدت لها أمريكا مليارات الدولارات؛ حيثُ تمَّ تنفيذ أكثر من ٣٠٠ فيلم سينمائي يشوه الاتحاد السوفييتي»[٢].

ولم يتوقف الأمرُ عند هذا الحد، بل أصبحت «هوليوود[٣] -

---

١ - مريم وحيد: دور السينما في تشكيل الرأي العام العالمي - دراسة حول صورة العربي في السينما الغربية -، ص٣٧٠.

٢ - أسد ماجد: السينما الأمريكية وأثرها في سياسات الهيمنة الخارجية، (٢٠٢١-٧-١٢)، تاريخ الاطلاع (٢٠٢٤-١١-٢٦)، على الرابط الآتي:

https://annasher.com/exclusive/1418/

٣ - منطقة في مقاطعة لوس أنجلوس في ولاية كاليفورنيا في الولايات المتحدة الأمريكية تقع بين الغرب والشمال الغربي لمركز مدينة لوس أنجلوس. سبب شهرتها وجود استوديوهات السينما والنجوم العالميين فيها، تعد المركز التاريخي للسينما الأمريكية والممثلين الأمريكيين. تستخدم كلمة «هوليوود» غالبا ككناية للسينما في الولايات المتحدة.

Hollywood" لا كمشارك فني في دعم الرؤية السياسيَّة الأمريكيَّةِ فحسب، وإنَّما كسلاحٍ إستراتيجي فعّال تملكه إدارةُ البيتِ الأبيض، وهو بالتأكيد لا يقلُّ خطورةً عن السلاح النووي، "إلى جانبِ ذلك لعب مكتب التحقيقات الفيدرالي دورًا كبيرًا بشكلٍ مدهش في إنتاج الأفلام، ووضع إستراتيجية ثُلاثية الشكل للفيلم: أنشأ أولا عملية مراقبة في هوليوود، وبذل جهودًا لتحديد الشيوعيين وإدراجهم في القائمة السوداء، وغسل المعلومات الاستخباراتية سرًا، وساعد كذلك في إنتاج أفلام عززت صورة 'مكتب التحقيقات الفيدرالي' كحامٍ للشعب الأمريكي"[1]. مثلما أسلفنا في البدء، فإنَّ المجالات كافةً داخل الحدود الجغرافية للدولة تكون خاضعةً بشكلٍ مباشر أو غير مباشر للرؤية السياسيَّة للنظام القائم فيها. ومن هنا، تنتفي الاستقلالية العامة للسينما عن غيرها من الوسائل الثقافية، ويُصبح استقلالها محصورًا في ظل فضائها الخاص، وأماكن اشتغالها؛ تبعًا لخصوصية هذا المجال أو ذاك، في كيفية تعضيده لسياسة النظامِ وخدمتِه، والشكل الذي ستظهر فيه. وفي هذا الصدد، ينقل أحد الباحثين

١ - خالد محمود، السينما - جبهة أخرى فى معركة «الحرب الباردة» بين الأمريكان والروس -، (٢٠٢٠-٢-١٩)، تاريخ الاطلاع(٢٠٢٤-١١-٢٦)، على الرابط الآتي:
https://www.shoroukknews.com/news/view.aspx?cdate=19022022&id=71765eb153-aa-4d11-b60e-3311ac4ba470

رفض (فالتر بنجامين - Benjamin Walter[١]): "فكرة استقلالية الفنان في عصر الإنتاج الميكانيكي للفن؛ ففي عملية خلق العمل الفني يتم دائمًا تسييس الأعمال الفنية التي تنتج ميكانيكيًا أو آليًّا، مثل الأفلام والصور الفوتوغرافية"[٢].

أخذت السينما الأمريكية الصدارةَ العالميَّةَ تدريجيًا، وهيمنت على معظم مجالات الصناعة السينمائية على مستوى العالم؛ من حيث دُور العرض وشبّاك التذاكر، فضلاً عن صناعةِ الأفلامِ نفسِها. وإذا ما أردنا تحديدَ النّسبِ المئوية التي تكشف مستوى هذه السيطرة، فإنَّ الأمرَ معتَّمِدٌ على التَّقديراتِ السنويَّةِ من قِبل مؤسسات معينة لرصد هذه المؤشرات ومراقبتها؛ حيثُ إنَّ نسبة السينما الأمريكيَّةَ من مجمل الإيرادات العالميَّة، لم تقِل عن ٥٠٪، وهذا متعلق بشباك التذاكر العالميَّة، والمبيعات المنزلية، وخدمات البث وغيرها، فيما تقل هذه النسبةُ قليلاً، فيما يخصُّ صناعة الأفلام، مع دخول دول عالمية أُخرى هذا المجال بقوة، وهذا ما يجعل نسبةَ الصناعةِ تَقِل، وقد تكون مرشحةً لأنْ تقل أكثر مستقبلاً.

إنَّ مسألةَ التفوقِ الذي فرضته هوليوود على مستوى العالم، جاء بالتوازي

---

١ - فيلسوف يهودي ألماني وناقد ثقافي وكاتب مقالات، قدم (بنيامين) مساهمات دائمة ومؤثرة في النظرية الجمالية، والنقد الأدبي، والمادية التاريخية. كان مرتبطًا بمدرسة فرانكفورت.

٢ - مريم وحيد: أنماط توظيف السينما السياسية، ص١٣٢.

مع التفوق الذي تشهده أمريكا في المجالات كافة، المتعلّقة بالاقتصاد والتسليح والدبلوماسية ...، يؤكّد هذا الأمر حقيقيَّة تكامل الأدوار التي تلعبها المنظومة الحاكمة ككل في تعزيز السطوة على مختلف الأصعدة، من خلال مختلف الأساليب بما فيها الهيمنة بكلّ متعلقاتها، وينطبق هذا الأمر على السينما، كأداةٍ تَرسَّخَ وجودُها من خلال أعمالها التي تصبُّ في هذا الجانب، ومثال ذلك، ظاهرة «السوبر هيرو – Super Hero" أي البطل الخارق الذي يتمتّع بقوة غير اعتيادية، على شكل "كوميكس – Comics" أي القصص المصورة بأحداث متتالية، لكنه كان التمهيد الأنسب لهذه المعادلة، خاصة مع انطلاقة "السوبر مان – Superman" في وقتٍ حساس جدًا ودقيق في سنة ١٩٣٨م؛ "نتيجةً لتوترات المشاركة الأمريكيّة في الحرب العالمية الثانية، وكان النازيون واليابانيون يشكلون تهديداتٍ هائلةً، هذه التهديدات فَرضت على المجتمع ظهور مصطلح القُوة الخارجة عن المألوف، هذه الحاجة إلى قوى شاملة ولدت أبطالاً مثل سوبر مان"[٣].

بعد ذلك بسنتين، أي تحديدًا في ١٩٤١م، ظهر «كابتن أمريكا - Captain America"، في خضم أحداث الحرب العالمية الثانية، ليعززَ من

٣ - نرمين صلاح القماح: سينما الأبطال الخارقين ترسّخ الهيمنة الثقافية، (٢٠٢٠-١٤-٦)، تاريخ الاطلاع(٢٠٢٤-٢٧-١١) على الرابط الآتي:
https://alarab-co-uk.cdn.ampproject.org/c/s/alarab.co.uk/

الحالة النَّفسيَّة العامَّة في تحدي الأهوال المحتملة لهذه الحرب، وليعضد من مسألةِ التفوق العالمي الذي بدأت ملامحه بالبروز في وقتها، خاصةً أنَّ هذه الشخصية تحمل في طياتها البعدُ الواقعيُّ بعكس "السوبر مان"، الذي جاء من الفضاء، جسَّد "كابتن أمريكا" فكرة المواطن الاعتيادي الذي يرتدي ألوان أمريكا، ويقود حُلمَها إلى عقول الأجيال الناشئة قبل أن تطأَ الأقدامُ أراضي بقية الدول.

وفيما يتعلق بالجهد السينمائي، شهدت فترة الحربِ العالميَّةِ الثانيةِ، بروزَ التعاون الصريح بين البيت الأبيض وهوليوود، بعد أنْ استدعى الرئيس الأمريكي (فرانكلين روزفلت - Franklin Roosevelt)[1]، مجموعةً من المنتجين والسينمائيين والممثلين المشهورين، من أجلِ مساندة الدعاية الحربيَّة الأمريكيَّة، ومشاركتهم بالتعبئة النَّفسية لحثِّ المجتمع الأمريكي -في وقتها- لإسناد الجهد الحربي؛ حيث تُوّج هذا التعاون العلني بـ«لماذا نقاتل- We Fight Why"، وهي سلسلة أفلام دعائية مُكوَّنة من سبعةِ أجزاء، تمّ عرضها في البدء على الجنودِ، ومن ثمَّ على عامَّةِ الشعبِ الأمريكيّ. ومن اسم السلسلة، يتضح محتواها في الإجابة عن سؤال: لماذا تدخلت أمريكا في الحرب العالمية الثانية؟

استمرّت هوليوود بعد الحرب العالمية الثانية، بدعم الجهد السياسي

١ - الرئيس الثاني والثلاثين للولايات المتحدة من عام ١٩٣٣ حتى وفاته في عام ١٩٤٥.

الأمريكي عن طريقِ ترسيخِ رؤيتها للأحداث والمواضيع من خلال الأفلام والأعمال التي تقوم بها، وفي سنة ١٩٦٢ تم إنتاج فيلم "اليوم الأطول" أو "أطول الأيام - The Longest Day"، وقد شارك فيه نخبة الممثلين هناك، وقد جسَّدَ هجومَ قواتِ التحالفِ على القُواتِ الألمانيَّةِ في منطقة "النورماندي"، "شهد الفيلم نجاحًا كبيرًا في قاعات السينما؛ إذ شاهده في فرنسا وحدها أكثر من أحد عشر مليون شخص. وقد شاركت فيه أعدادٌ كبيرةٌ من القواتِ الأمريكيَّةِ، مما سبَّبَ فضيحةً للبنتاغون (وزارة الدفاع الأمريكية) الذي اضطر إلى سحبِ القُواتِ المشاركة في الفيلم وإرسالها إلى كوريا"[١].

رأينا من خلال النماذج المتقدّمة، كيف أصبحت السينما أداةً لتعزيزِ روح التفوق الذي تغذيه المنظومةُ ككل في الدَّاخلِ الأمريكي، وهو بحد ذاته يشكّل خُطوةً جوهريَّةً وتمهيديَّةً في نقلِ هذا الشعورِ إلى خارج الحدود الجغرافية، وهو ما حصل تباعًا وفق إستراتيجيَّات مرسومة بدقّة. كما ساهمت السينما في تمجيد نمط الحياة الأمريكية، وتوظيفها في الدفاع عن السياسات الخارجية للبيت الأبيض، «فالسينما الهوليوودية لم تسلم يومًا من الخطاب السياسي. فهي تُبسط إلى أقصى درجة تفسير الظواهر السياسية المعقدة وتترك المشاهد يعتقد بأنَّ رُدودَ فعلِ الحكومات لا تكون

١ - ميلود دقيق: هوليوود في خدمة السياسية الأمريكية، ص٣١.

إلَّا شرعية، ما دام الشر هو دائمًا من يهدد حياة المجتمع ومن خلال هذا المبدأ فإنَّ السينما تعمل على تصنيع الموافقة»[١].

أصبحت السينما جزءًا أصيلاً في إستراتيجية الإدارة الأمريكيَّة، وامتزجت هوليوود بهذه السياسة بشكل فعال؛ حيث جندت نفسها معبرًا لهذه الرؤية الأمريكية وهي في طريقها لعقول المشاهدين، ولعل (جان فالانتين - Valantin Jean)[٢] هو صاحب الوصف الأدق لحالة الامتزاج الذي أطَّر علاقةَ البيتِ الأبيض بهوليوود؛ حيثُ يقول: «إنَّ وكالة الاستخبارات الأمريكية غير محتاجة لكتابة سيناريوهات أفلام هوليوودية؛ لأنَّ كُتّاب السيناريو الأمريكيين يشبهون عملاءَ الوكالة أو وكالات أخرى تابعة للبنتاغون، كلهم يحملون نفس الثقافة؛ ثقافة التهديد، وكلهم ينحدرون من نفس الحضارة؛ حضارة الديمقراطية»[٣].

---

١ - ساكر صباح: السياسية الأمنية الأمريكية من خلال الفيلم الروائي - دراسة سيميولوجيّة لعينة من الأفلام الأمريكية من فترة الحرب العالمية الثانية إلى ما بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١ -، ص٢٤.

٢ - دكتور في الدراسات الإستراتيجية وعلم الاجتماع الدفاعي، ومتخصّص في الإستراتيجية الأمريكية.

٣ - ساكر صباح: السياسية الأمنية الأمريكية من خلال الفيلم الروائي - دراسة سيميولوجيّة لعينة من الأفلام الأمريكية من فترة الحرب العالمية الثانية الى ما بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١ -، ص٦٣.

ثَانيًا: تَأثيرُ السّينمَا الأَمريكيَّة عَلَىْ الشَّبَاب العِرَاقِيّ

بعدَ الاحتلال الأمريكي للعراق سنة ٢٠٠٣م، عاش البلدُ -وما زال يعيش- حالةً انتقالية على مستوى النّظام السياسّي وتوابعه المتأثرة، سواء الاجتماعية منها أو الاقتصادية، وكل ذلك جرى -وما زال- تحت مظلَّة محتلٍ متسلطٍ عالميًّا. فالتبدُّل من نظامٍ ديكتاتوري منعزلٍ دوليًّا، إلى شكلٍ سياسيٍ تعددي يُرادُ له الانفتاح، يتطلبُ العملَ وفق المتطلبات العالمية المستقرة، والمتوافق عليها ولو نسبيًّا. إنَّ المسارَ الدولي في علاقاته المتبادلة قائمٌ على أساسٍ ليبرالي من النَّاحية السياسيَّة صوريًّا، ومنَ النَّاحية الاقتصادية فعليًّا. إنَّ العملَ وفق هذا المسار، جعل من الدولة العراقيَّة ساحةً مفتوحةً علىَ مصراعَيها في كافَّة المجالات، والتي منها إباحة المجتمع ككُلٍّ أمامَ الإعلام الكلاسيكيّ بوسائله المتعدّدة، مضافًا إلى وسائلِ الاتصال الحديثة، التي حوّلت المجتمعَ من نطاق الدَّائرة المغلقة التي كانَ يتَّصفُ بها؛ حيثُ كانَ يتفاعلُ ضمن محركاته الدَّاخليَّة من عادات وتقاليد، إلى دائرةٍ مفتوحة تستقبلُ أكثرَ ممَّا تُوردُ للغير، ممَّا جعله يعاني من الاغترابِ الجَمعي والفَردي واستلابهما؛ بسبب ما خلَّفه الاحتلالُ الأمريكيُّ بالتزامن مع عملِ هذه التقنيات.

ومن هنا، فإنَّ هذا التطورَ الطارئَ قد فرضَ واقعًا مغايرًا لما هو معروف؛ إذْ أصبحَ المجتمعُ يسبحُ في بركةٍ مختلطةٍ أكثرها مضاف، سوى من عادات جديدة استمدت رسوخها من قوة الدعاية والنموذج؛ أي فرض الرمز

المغاير عن المتعارف، وهذه العملية ذات تأثير إستراتيجي في المجتمع بوصفِها أداة تمنح الجديد البعد القيمي ولو كان مخالفًا لما هو سائد.

ومن أهم الأدوات التي أخذت نصيبها من ذلك، هي السينما، التي أتاحت لها هذه العملية، التسلُّلَ من كافَّة الأبوابِ المفتوحة؛ قنوات ومواقع إلكترونية وغيرها، فعَانىَ الشبابُ العراقي من حالات تشظيٍّ فكري؛ نتيجةَ هذا الكم من وسائلِ الإعلام التي أصبحت متاحةً أمامَه، بعد أن كان محصورًا في نافذةِ النِّظامِ البعثي، التي تسمح له برؤية ما يريده النظامُ فقط. من هنا، كانت السينما بابًا مهمًّا في ممارسة التَّأثير الفاعل اتجاه الشبابِ العراقيين، مضافًا إلى كون السينما بحدّ ذاتِها أداةً مؤثرةً اتجاه المجتمعات المستقرة، فكيف بالحالة العراقية؟!

إنَّ السينما توفرُ حالةً من الشعورِ بالتَّحرر، وملامسةِ الأجزاءِ المكبوتة الداخلية للشباب من خلال قَصديَّة التماثل والتعبير التي تطرحها الأعمالُ السينمائيَّةُ على المشاهدين، هذا التحررُ في ظل الحالة العراقية، الخارجة حديثًا من سطوة الديكتاتورية، وجدَتْ في هذه الأداة ملاذًا ملائمًا لمرحلة الانتقال هذه، وفي هذا الصدد تؤكد (إستيلا إيفانز -Estella Evans)[1] أنَّ «الأفلام السينمائية تُعد من بين الطرق الفعَّالة للتعبير عن السلوك البشري، وتحرير الفرد اجتماعيًّا من خلال التعبير عن الصُورة المثالية للتحررِ

١ - أكاديمية وكاتبة أمريكية متخصصة في دراسات الدين واللاهوت، وهي معروفة بإسهاماتها في مجال لاهوت التحرير.

الاجتماعي بطريقة سينمائية، تزيد من انجذاب الشباب نحو تحقيقه، وتجعل الفردَ يتقمَّصُ دورَ البطلِ، ويقلّده في تحرره اجتماعيًّا وثقافيًّا ...»[١].

وقد عمدت السينما الأمريكية إلى تناولِ موضوع غزو العراق بشكل مكثَّف، في إطار الحرب والمَيدان تارةً، وفي الإطارِ الاجتماعي والنفسي مع مخلفات هذا الغزو تارةً أخرى. هذا التكثيفُ تجلَّى كمًّا ونوعًا؛ حيثُ وصلَ عددُ الأفلام إلى ٢٠٠ فيلم تقريبًا، مع تعدُّد «الثيمات» التي تم إدراجها في هذه الأعمال، فـ«أكثر من مئتي فيلم أنتجتها هوليوود عاصمة السينما الأمريكية منذ العام ٢٠٠٣م، تناولت فيها ما حصل-ويحصل- في العراق ومن زوايا عدة، أفلامٌ دارَ بعضُها عن الحرب، وكانَ الجزءُ الأكبرُ فيها يتناول ما بعد الحرب ... الكم الكبير من الأفلام أدخل تصنيفًا سينمائيًا جديدًا أَطلق عليه النُّقادُ 'أفلام حرب العراق'«[٢]

---

١ - مها محمد فتحي: تعرّض الشباب الجامعي للأفلام السينمائية المعروضة بالفضائيات العربية وعلاقته بالتحرر الاجتماعي لديهم، ص٣١٩

٢ - يوسف المحسن: سينما هوليوود وقضية العراق - فيلما «المبعوث» و«خزانة الألم» كأنموذجين -، (١٠-٣-٢٠١٨)، تاريخ الاطلاع(١-١٢-٢٠٢٤)، على الرابط الآتي:
https://www.alquds.co.uk/%EF%BB%BF%D8%B3%D98%A%D9%86%D985%%D8%A7-%D987%%D988%%D984%%D98%A%D988%%D988%%D8%AF-%D988%%D982%%D8%B6%D98%A%D8%A9-%D8%A7%D984% %D8%B9%D8%B1%D8%A7%D982-%%D981%%D98%A%D984%%D985%%D8%A7-%D8%A7/

هذا الكمُّ الكبير من تناول الموضوع، وبهذه الصياغات المتعددة للجانب القصصي التي تضمنتها هذه الأعمال، هدَف إلى عدةِ أمور:

تمييع أو التسخيف قضية الغزو والجرائم التي ارتكبتها قوات الجيش الأمريكي، من خلال تصوير الشخصية العراقية في هذه الأعمال بطرق همجية وإرهابية وخائنة، تبرر للجنود -من خلال الإيحاء- اضطرارهم للقتل من أجل التصدي لهؤلاء، «فما أنتجته هوليوود بعد حرب 'عاصفة الصحراء'، صدَّرت مكانه صورتان: الأولى للإرهابي ابن العامَّةِ سواء كان رجلاً أو طفلاً لم يتجاوز العاشرة لتبرير قتله، والثانية هي صورة الفرد الآخر، المتعاون مع المخلِّص الأمريكي ...، وهاتان صورتان مطابقتان لصورتي الأفغاني في هوليوود، لتكون المحصلة كالتالي، أينما وطأَ جُندُنا ثمة مسلوب إرادةٍ سنحرره، وإرهابي شرير سنقتله»[1].

الاستمرارُ في تصديرِ الحالة البطولية والخارقة للجندي الأمريكي، إلى جانب إبراز النواحي الإنسانيَّة فيه، ممَّا يؤدي إلى خلق تصور عن سمو أفراد الجيش الأمريكي، لا كونهم مجرد مجرمي حرب، «بالرغم من سقوط كل الأدلة والوعود الأمريكيَّة لغزو العراق، ظلَّت الصورة التي تقدمها السينما

١ - علي رياض: استشراق هوليود في العراق - جنود ضحايا ومجتمع إرهابي -، (٢٠٢٣-٣-٢)، تاريخ الاطلاع(٢٠٢٤-١٢-١)، على الرابط الآتي:
https://jummar.media/3370 (بتصرف)

للجيش الأمريكي وجنوده أنَّهم قوةُ حمايةٍ وإنسانية وليست للغزو»[1].

ج. الإيحاءُ للمشاهدِ أو المتلقي العراقي الشاب، بأنَّ هذا البلدَ لم يكن ليتحررَ لولا أمريكا، هذا الوهم يهدف إلى تعضيد دور الارتباط السياسي والاقتصادي للبلد بأمريكا، من خلال تعزيزِ الشعورِ بالهيمنةِ التي تملكت الشباب اتجاهها. وتعميق الشعور بتفوق هذه الدولة وتمكنها من المجالات كافَّةً.

د. ترسيخُ فكرة وجود تنوع داخل الإدارة الأمريكية، من خلال الأفلام التي تناولت حربَ العراق؛ حيثُ السيناريوهات التي ألقت باللَّوم على الإدارة الأمريكية، وبيَّنت كذِب ذريعة الغزو (المتمثلة في أسلحة الدمار الشامل) وهذا الذي وُجِّه لحكومة بوش من الداخل الأمريكي، مما يبني مزيدًا من الثقة بهذا البلد كنَموذج فعلي لأرض الأحلام كما يتم الترويج

---

١ - أكرم القصاص: السينما الأمريكية وفن تقديس الغزاة في العراق، (٢٠١٧-١١-١١)، تاريخ الاطلاع(٢٠٢٤-١٢-١)، على الرابط الآتي:

https://www.youm7.com/story/201711/11//%D8%A7%D984%%D8%B3%D98%A%D986%%D985%%D8%A7-%D8%A7%D984%%D8%A3%D985%%D8%B1%D98%A%D983%%D98%A%D8%A9-%D988%%D981%%D986-%%D8%AA%D98-%2%D8%AF%D98%A%D8%B3-%D8%A7%D984%%D8%BA%D8%B2%D8%A7%D8%A9-%D981%%D989-%%D8%A7%D984%%D8%B9%D8%B1%D8%A7%D93504625/82%.

لها. هذه الثقةُ هي أساسٌ جوهريٌّ في عمليَّةِ الهيمنةِ بشكلٍ عام، والهيمنةِ الثقافيةِ على وجه خاص. إنَّ هذه الثقة التي يُمهَد لها من قِبَل عدّة وسائل والتي تُستخدم في سبيلِها كثير من الأدوات، تؤدّي إلى الاطمئنان لهذا النَموذج، ومن ثَمّ الخضوع له، لا من منطلقاتِ القوةِ والعنفِ أو أي وسيلةٍ من وسائلِ الإكراه، بل من خلال هذه السياقاتِ الشبيهة بالمسارات الناعمة، وهي التي تُميّزُ مفهومَ الهيمنةِ عن ما عداها من مفاهيمَ أُخرى.

إنَّ الأعمالَ السينمائية التي تناولت حربَ العراق، كان بعضًا منها ممهدًا لهذا الحدث -أي استبقت الغزو- وتحديدًا بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر[1]، من خلالِ تهيئة المجتمع في أمريكا للحرب، جرى ذلك من خلال التَّسويقِ المستمرِ لاحتمالية تكرار الهجمات بشكلٍ مدمر أكثر، مما يعني ضرورة اتخاذ الإجراءات الاستباقية التي تهدف إلى القضاء على هذه التهديدات، من أجل منع هذه الكوارث. وهذا يعني أنَّ السينما أخذت على عاتقِها تبريرَ الحربِ وجعلها في إطار أخلاقي، من خلال إيهام الرأي العام هناك، بضرورة هذا الخيار، بل وبحتميته. ومن الواضح، أنَّ السينما الأمريكيَّةَ تُعزز دومًا من مكانتها في فتراتِ الحروب أو في أوقاتِ الأزمات بشكلٍ عام، «ففي شهر أكتوبر من سنة ٢٠٠١م، أيام قليلة بعد أحداث ١١ سبتمبر وجَّه معهد الإبداع التكنولوجي في جامعة كاليفورنيا

١ - تفجير برجيّ مركز التجارة العالمي في نيويورك ومقر وزارة الدفاع في واشنطن.

الجنوبية نداءً إلى أكبر الأسماء في هوليوود من أجل كتابة سيناريوهات معقولة تتحدث عن هجومات إرهابية مستقبلية، وكان ضمنَ هذا الفريق المخرجون (دايفيد فينسر)، (جوزيف زيتو) و(سبايك جونز)، وكاتب السيناريو (ستيفن دوسوزا)، وأشرف البنتاغون على هذا المُلتقى ...، وصارت هوليوود بسرعة عاصمة سياسية جديدة»[1].

بناءً على هذا التنميطِ الذي قامت به هوليوود اتجاه الشخصيَّة العراقيةِ في أعمالها، تَبلور إطارٌ سلبيٌّ حول صورةِ العراقيّ أمامَ العالَمِ لا المجتمع الأمريكي فحسب، مضافًا إلى العراقيين أنفسهم، خاصةً الفئة المراهقة منهم. أمَّا التَّأثير الذي تتركه هذه الأعمال على المستهدَف نفسه، فلا يعود إلى القدرة الدعائية والتلاعب النفسي والمقدرة التقنيةِ والنصِّ المحبوكِ لسينما هوليوود فحسب، وإنَّما يُعزَى إلى المرحلةِ الزمنيةِ التي يعيشُها الشبابُ أيضًا، في ظلِّ بيئةٍ غيرِ مستقرةٍ تعاني من حالةِ صراعٍ ذاتي. ولا أقصدُ المدةَ التي أعقبتْ الاحتلالَ الأمريكي فقط، بل الدولة العراقية ككل منذُ التأسيسِ حتى الآن؛ لأنَّ هناك تشابهًا لناحية متتاليات الفوضى والصراع على النفوذ، كان في البدءِ ردُّ فعلٍ ضدَّ الملكيَّةِ، ومن ثمَّ تطورَ فيمَا بعد ليتخذَ شكلَ الجُموح العسكريّ للسيطرةِ على السُّلطةِ، فتوالت

---

١ - ساكر صباح: السياسية الأمنية الأمريكية من خلال الفيلم الروائي - دراسة سيميولوجيّة لعَينة من الأفلام الأمريكية من فترة الحرب العالمية الثانية إلى ما بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١ -، ص٧٠.

هذه الثنائيةُ لفترةٍ طويلةٍ بل كادت أنْ تكونَ ثابتةً في معادلةِ الصراع، دونَ أن ننسى الرفضَ الشعبيَّ الذي اتخذَ شكلَ الانتفاضةِ في التسعينيَّات.

هذه الأضداد كانت ولاتزال مدَعمَّة بالعنصر الخارجي الذي كان واضحًا، لا سيَّما في العهد الملكي وبعد ٢٠٠٣م، الذي حمل أيضًا سابقةً خطيرةً تمثَّلت في انعكاس الصراعِ السياسي على المجتمعِ الذي كان مفتعلاً بلمسة «نيغربونتية»[1] خالصة، وصولاً إلى اشتعال الاقتتال الأهلي. ثمَّ برز الصراعُ السياسيُّ في خطٍّ تصاعديّ، وهذه المرة لم يكنْ بينَ سلطةٍ وجهةٍ أخرى، وإنَّما كان عِراكًا النواةُ هي المُشكّلة له -أي الأحزاب- فتَولَّد التخبُّطُ وعدمُ الاستقرارِ، ولا ننسى عاملَ الإرهاب الذي ينمو في هكذا أوضاع. كلُّ هذه العوامل وغيرها، لم يسلم منها أيُّ مجتمعٍ مع التجربة الديمقراطية، التي من المفترض أن تنتشل العراقيين من مغبَّةِ الاستبداديَّات الماضية.

إنَّ ذِهنيةَ المجتمعِ والأفرادِ المُشكّلين له، إذا ما استمرت في العيش ضمن بيئةٍ غير مستقرةٍ في المجالات كافةً، من شأنه أن يدفع بها كي تنشُدَ أيَّ حلٍ مفضٍ للخلاص، فحالةُ الفوضى تؤدي لتأصيلِ الحالةِ الهمجيَّةِ في نظرةِ الأفرادِ لبعضِهم بعضًا، وتترسخ في طبيعتهم، بشكلٍ يجعلهم يشعرون بأن لا سبيل لتدجينهم سوى القوة.

---

١ - جون نيغروبونتي، سفير واشنطن في العراق بين عامي ٢٠٠٤م و٢٠٠٥م.

لذلك، هذه الأسباب الذاتية مضافًا إلى الأعمالِ الدراميةِ والسينمائيةِ، شكلتا عاملين في ترسيخ الصُّورةِ السلبيةِ هذه. ولهذا الأمرِ آثارٌ ونتائج خطيرةٌ تنعكس على شتى المجالات، والتي يكون في مقدمتها التعامل الذي سيتلقاه العراقيُّ من الآخر، فـ»المرءُ بمقدوره أن يبرهنَ على أن صور العرب المميتة في السينما تنعكس أحيانًا في مواقف وأفعال الصحفيين والمسؤولين في الحكومة. دعونا نفكر في الآثار التي نجمت عن كارثةِ تفجير المبنى الفيدرالي في مدينة أوكلاهوما بولاية أوهايو، فعلى الرغم من عدمِ تورُّطِ أي أمريكي من أصل عربي، فإنَّ الشكوكَ حامت حولهم في الحال. فالتقاريرُ الأخباريةُ إضافةً إلى عهودٍ زمنيةٍ طويلةٍ من الصُّورِ النمطيَّةِ الضارةِ أدَّت إلى ارتكاب ثلاثمائة جريمة ضدهم لدوافع الكراهية»[1].

إذًا، إنَّ التأثيرَ الذي تتركه الصورةُ لا يتوقف على حدودِ المِزاج العام العالمي، ولا في مُخيّلَة رأيٍ مُعينَّ، ولا على نفسيةِ المستهدَف، بل يمتد إلى الواقع بأبشع أشكاله، خاصةً عندما يتحوَّل الأمرُ لمبررات قتل. وفي هذا الصدد، يقول (هنري كيسنجر- Henry Kissinger)[2]: «في زمنٍ يكتسبُ فيه المزيدُ من النَّاسِ مفاهيمَهم من الأفلامِ أكثر من الكلمةِ المكتوبةِ، فإنَّ الحقيقةَ ليست المسؤولية التي يمكن للمخرجين أن يتعاملوا معها

١ - جاك شاهين: الصورة الشريرة للعرب في السينما الأمريكية، ج١، ص٢٢.

٢ - سياسي ودبلوماسي وخبير استشاري جيوسياسي أمريكي، شغل مناصب عدة منها وزير خارجية الولايات المتحدة ومستشار الأمن القومي.

باستحقاق، وكأنَّها نِتاجٌ فرعيٌّ عرضي لحريَّةِ الإبداع»[1].

إذًا، يمكننا إجمال التأثير السينمائي على الفئة الشبابية في العراق، من خلال الآتي:

أ. ترسيخُ الصُّورةِ السلبيَّةِ للشخصيةِ العراقيَّةِ والإسلاميَّةِ في الذهنيَّةِ العامَّةِ، سواء أكانت في تصوراتِ الشَّبابِ العراقيين أو الرأي العام العالمي، من خلال التنميطِ الذي قامت به هوليوود في تناولها، من خلال تأطيرها في معظم الأعمال بين خيارين لا ثالث لهما: إمَّا خائنٌ متعاونٌ مع الأعداءِ، أو قاتلٌ إرهابيٌّ.

ب. الاستلابُ الثَّقافيُّ؛ أي تجريد المجتمعِ وخاصةً الشباب من عمقِهم الحضاري، والعاداتِ والتقاليد التي نشأوا عليها. لذلك، أثَّرت هوليوود في هذا المضمارِ من خلال أعمالها العامَّة، والتي تتناولُ الحياةَ الأمريكيَّةَ، وتُروجُ لهذا النمطِ بوصفه المسار الأوحد لعيش الحياةِ المثاليَّة، فضلاً عن تقديم السلوكيات الخاطئة وتنميقها بشكلٍ مخادعٍ تمهيدًا لجعلها أكثر قبولاً. ومثال ذلك: علاقة الأبناء بأبويهم، وارتباطهم بالدّين والقِيَم الأخلاقيَّة وغيرها. إنَّ الاستمرارَ في هذه الأساليب من شأنه أن يؤديَّ تدريجيًّا إلى تذويب الهويَّاتِ الدينيَّةِ والاجتماعيَّةِ للمجتمعات، بغية سلخِها عن انتمائها الرُّوحِي، ومن ثمَّ فرض أنماطٍ وثقافاتٍ مختلفةٍ تساعد

١ - جاك شاهين: الصورة الشريرة للعرب في السينما الأمريكية، ج١، ص٢٢.

في تطويع الأفراد وربطهم بمصالح الدول التي تمارس هذه الطرق.

ج. إعادةُ تشكيلِ المِزاجِ العام في الطريقة التي تريد، كما أنَّ لها أساليبها الخاصة، التي تمُكنُها من التأثيرِ في نظرةِ المشاهدين إلى الأشياء، وهذا ما ينسحبُ أيضًا على الشاب العراقي كمُتلقِّي، شأنه في ذلك شأن أقرانه من المسلمين عمومًا. هذه النقطة مهمة؛ لأنَّها تمُثِّل التطبيقَ العملي لسلخِ الفردِ والمجتمعِ عن هويتهما الدينية والاجتماعية. إنَّ هذه العملية التي تقوم بوظيفتها السينما، أي في إعادة تشكيل المِزاج العام أو الآراء اتجاه مختلف القضايا، سواء أكانت دينيَّةً أم تنتمي إلى الأعراف والتقاليد وغيره، تتم بشكل تدريجي في الغالب، كي يكون قبولها أكثر رسوخًا في لاوعي المشاهد، فـ»تتمتع الأفلام والبرامج التلفزيونية بالقدرةِ على التأثيرِ على الرأي العام وتشكيله بشأن مجموعةٍ واسعةٍ من القضايا الاجتماعية والثقافية. ولديها القدرة على تحدي الأعراف المجتمعية، وزيادة الوعي، وتعزيز الشمولية. وسواء كان الأمرُ يتعلق بمعالجة موضوعات مثل المساواة بين الجنسين، أو العدالة العرقيَّة، أو حقوق مجتمع الميم، فقد لعبت هوليوود دورًا حاسمًا في بدء محادثات مهمة ودفع التغيير الاجتماعي»[1].

1 - HEART OF HOLLYWOOD MAGAZINE، Hollywood›s Impact on Pop Culture: How Movies and TV Shape Society and Influence Trends، (32023-7-) ،Date of visit (2024 -12 -4): https://www.heartofhollywoodmagazine.com/post/hollywood-s-impact-on-pop-culture-how-movies-and-tv-shape-society-and-influence-trends

لم يكن تناول موضوع الشخصيةِ المثليَّة وليدَ الأعمالِ الحديثة في هوليوود، بل تعود أُولى المشاهد التي تشير لهذا المرض، إلى أفلام مضى على عرضها ما قارب المئة سنة، ففي «عام ١٩٢٢م كانت أول قبلةٍ مثيرةٍ بين عضوين من نفس الجنس في فيلمٍ للمخرج (Cecil B. DeMille›s) بعنوان: ‹Manslaughter› أو ‹القتل غير العمد›، ثم في فيلم ‹City Lights› عام ١٩٣١، الذي كتبه وأخرجه (تشارلي شابلن) ...»[١]

واستمرت علاقةُ المثليَّةِ بالسينما الأمريكيَّة بالتطور المستمر، وإنْ مرّتْ في بعض لحظاتها بتوتُّرٍ ما، إلى أن اتسمت عمومًا بالانسجام التام، حيثُ إنَّ كليهما يعملان على تحقيق ذات الأهداف. فقد ساهمت السينما الأمريكيَّةُ في إنشاء الموافقةِ للشذوذِ الجنسي ومن ثمَّ القَبول في مختلفِ المجتمعات المستهدفَة تدريجيًّا، خاصةً إنَّ لغةَ السينما -مثلما يُقَال- هي الصُّورة، التي تُفهم من قِبل الجميع مع غضِّ النَّظر عن لغاتِهم وأماكن تواجدهم، «فقد كشفت دراسةٌ على المجتمعِ الأمريكي عن ارتفاعٍ تاريخي في نسبةِ المؤيدين لحقوق المثليّين منذ عام ٢٠٠٩م بسبب عدد من العوامل، أبرزها مشاهدتهم للمسلسل الشهير ‹أحد المسلسلات›»[٢]

---

١ - ديمة لطفي محمود حمدان: المثلية الجنسية على شبكة نتفليكس العالمية - عينة مختارة من المسلسلات نموذجًا -، ص٢٥.

٢ - ديمة لطفي محمود: المثلية الجنسية على شبكة نتفليكس العالمية - عينة مختارة من المسلسلات نموذجًا -، ص٣٣.

إنَّ السببَ الذي يكمنُ في التأثيرِ الشَّاسعِ الذي أحدثه هذا المسلسلُ فيما يتعلّق بموضوع المثليَّة، هو من ناحيةِ القصَّة و«الثيمة» الأساسية، التي تناولت الشخصياتِ الشاذَّةَ كأبوين في عائلةٍ يساهمان في تربية الأطفال -وهم بكل تأكيد يتبونهم- بطريقةٍ اعتياديَّةٍ وسَلِسَة بعيدًا عن التنميط الذي كان يُسيطر على المُخيّلَةِ العامَّةِ اتجاه الموضوع، لكن من خلال هذا التناولِ وتحويل أُطر طرح هذا الموضوع من الصورةِ الشائعة، إلى تصوير الشخصيات الشاذَّةِ كزوجين وأبوين يمارسان حياتهما الاعتياديَّةِ، أحدثَ كلَّ هذا التأثير الذي يُذكر.

■ المبْحَثُ الثَّاني: الجَامِعَاتُ – الجَامِعَةُ الأَمْرِيكِيَّةُ

تكتسبُ الجامعةُ بوصفها مرحلةً دراسيةً مهمةً بالنسبةِ للفئةِ الشبابيَّةِ، مكانَها المتميّز في سُلَّمِ أولويات العقل الأمريكي بشكلٍ خاص، والاستعماري بشكلٍ عام. فالجامعة بوصفها أداةَ هيمنةٍ ثقافيةٍ، سبقت ظهور المفهوم -مفهوم الهيمنة- في عالم التنظير، وفي أدبيات المفكرين والباحثين. وحينما نقول: الجانب التنظيري، فإنَّنا نعني الجانبَ الذي يُقابل الوجودَ الواقعيَّ، الذي قد توجد فيه تطبيقاتُ بعضِ تطبيقات المفهوم قبل عقود أو قرون من ولادته. نظير وضع الأوزان الشعرية؛ حيثُ ظهر تدوينها

مع (الخليل بن أحمد الفراهيدي)، لكن هل كان العربُ لا يعرفون قبل القرن الثاني الهجري -مرحلة الفراهيدي- صحيحَ الوزنِ ولا اعتلاله في شعرهم؟! والشعر كان الأداةَ الأهمَّ في التدوين -أي وثيقة تاريخية- لا مجرد قصائد تُلقى. لكنَّ الفرقَ بين الأمرين تمثل في سحب الأوزان والعروض من حيّزِها التداوُلي المقتصِر على المتعارَف والسَّماع دون ضبط، وانتقل بها إلى التدوين، وجعلها منظومة متكاملة تتسم بخصائص معروفة يتم الركون إليها كوحدةٍ واحدة، لا البحث عنها في أفواه المتكلمين ومضارب البدو والأعراب. ومثل ذلك ينطبق على الكثير من المفاهيم: الحرب الناعمة، الحرب النفسية، الديمقراطية، وغيرها من المفاهيم.

وبعدَ ظُهورِ مفهوم الهيمنةِ، تكلَّلَ الدورُ الذي تلعبُه الجامعةُ بفعاليَّةٍ أكثر؛ نتيجة ارتباط كليهما بدور الإخضاع الطوعي للآخر. وقبل الخوضِ في تأثيرِ الجامعةِ الأمريكيَّةِ في العراق، لابدَّ من أن نمرَ على تجارب هذه المؤسسة في بعض البلدان، لما له من أهميَّةٍ في معرفةِ تاريخ هذه الجامعة وبداياتها، وأثرها في مجتمعات تلك الدول، ومن أجلِ ذلك سنتناول نَموذجيَّ هذه الجامعة في كلٍّ من بيروت والقاهرة.

أَوَّلًا: الجَامعَةُ الأَمريكيَّةُ فِيْ بَيْرُوت

ليسَ سرًّا أنْ تنشأَ الجَامعةُ الأمريكيَّةُ أو الصروحُ التعليميَّةُ الأُخرى المشابهةُ، من رُكامِ الإرسالياتِ التبشيريَّةِ، وما زالت هذه المدارسُ نفسُها

حاضرةً وبقوةٍ، ينتقل من جسدٍ لآخر، حتى لو تلبس بجلدٍ غير جلدِه بالمرة، وبلسان أعجميّ عن لغته، كما لو أنَّ قِسًّا يتكلم بلسان (نيتشه- Nietzsche)، فهو يتلبس بالوسائل دائمًا حتى لو اضطره لشتيمة المسيح وازدراء هذه الديانة كما كان يفعل هذا الفيلسوف.

لم تكنْ قضيَّةُ التأسيسِ في التعليمِ العالي من قَبل اللاهوتيين الأمريكيين، مجردَ قفزةٍ في الرؤيةِ أو نتيجة استشارة مبتكرة، بل جاءت بعد دراساتٍ معمَّقةٍ أثبتت أهميَّةَ التعليم، في مجال الاشتغال التبشيري والأمريكي على حد سواء، كمَّا أنَّ فكرةَ المأسَسَة التعليميَّة في السياق الأعلى، سبقتها أرضيَّةٌ مُهيَّأةٌ للتلقي، وقبل ذلك -وهو الأهم- عمل متواصل في الجانب التعليمي من قبل هؤلاء في المستويات الأدنى، فنلاحظ –مثلاً- أنَّ في عام ١٨٦٠م بلغ عددُ المدارس المنخرطة في العملِ ضِمن هذا الفضاء من قَبل الإرساليات الأمريكية في لبنان ٣٣ مدرسةً[١] تقريبا، ونحو ألف تلميذ، شكلت الإناث منهم ما نسبته ٢٠٪.

إنَّ الوضعَ الذي كانت تمر به الدولةُ العثمانيَّةُ وأزمتها المستمرة من الداخل، وتآكل قواها في الميادين كافة، كانت من بين الأسباب الرئيسة في نجاح هذه المشاريع وغيرها، بل كانت الدولةُ العثمانيَّةُ سببًا جوهريًّا في كل ذلك؛ نتيجة الممارسات الممنهجة منذ التأسيس وإلى يوم سقوطها؛ حيثُ

١ - منار عبد المجيد عبد الكريم: الجامعة الأمريكية في بيروت فكرة تأسيسها ونظام تعيين رؤسائها وأساتذتها، ص٣٩٤.

أدَّت السياسات الإقصائية والطائفية التي مارستها هذه الدولة، والتي جاءت مكمّلَةً للسلسلةِ الأُمويَّةِ والعباسيَّةِ، في ممارسة ذات النهج -في تمزيق الأمة الإسلامية- وجعلها في حالة احتراب داخلي. أدَّى هذا الأمرُ بطبيعةِ الحال إلى جعلِ الأمَّةِ رهينة هذه السلطات، كما جعل قوتها منصرفة في خدمة أهداف الوُلاة، دون الهدف الأهم والرئيس؛ ألا وهو الإسلام، ممَّا أفقدها الحمايةَ الذاتيَّةَ والروحيَّةَ لنفسها في حالة ضعف هذه الدول. لذلك لم تكن السلطات هي التي تنهار فحسب، وإنَّما كثيرٌ من المقدرات العامة والتي من المفترض أن تكونَ مستقلةً عن السياق الشخصي للحاكم، أو الصفة العمومية للحكم، فأدَّى هذا الوهنُ الذي أصابَ الدولةَ العثمانيَّةَ إلى تَغلغُلِ الدول الكبرى والاستعمارية في جسمِ الأُمَّةِ على مستوى الجيوسياسي.

لم يتوقفْ الأمرُ عندَ هذا الحدِّ، بل شرعت هذه الدولة بمنحِ المزايَا لهذه القُوى من أجلِ الحفاظ على نفسِها ومصالحِها. ومن جملةِ ذلك، تشريع قانون الإصلاحات العثماني الذي منح كل هذه الامتيازات، بل وصل الأمرُ إلى حدّ أنَّ المبشرين "كانوا يُدرسون في المدارس بإسطنبول نفسَ الكتب التي يُدرِسونها في بلدانهم، حتى أنَّ أغلبَ تلك الكتب توجد فيها نصوص ضد الأتراك، وبسبب امتيازات الدول الأجنبية لم تكن وزارة التعليم العثمانية قادرة على التدخل بهذا الأمر"[1].

١ - ترك برس: المدارس الأجنبية في العهد العثماني، (٢٠١٥-١٢-١١)، تاريخ الاطلاع (٢٠٢٤-١٢-١٢)، على الرابط الآتي: https://www.turkpress.co/node/15042

وعلى صعيدٍ آخر، كانت أمريكا في بدايات ممارسة العلاقات الدبلوماسية على الصعيد الدولي، ولم تُصبح بعد قوة كُبرى، ليُخشى منها. وبالتالي، فإنَّ تحركاتها لم تكن تثيرُ الريبة أو تدعو للقلق من جانبِ السُلطات العثمانية وقتذاك، التي لم يكن بمقدورِها التضييقُ على الممارسات الممنهجةِ من قِبل الدول الاستعمارية المعروفة ذات النوايا الواضحة والمُعلَنة، فهل ستقلق من هذه الدولة الناشئة؟!

وفي العودة إلى أهميَّة المدارس التبشيرية التي شكَّلت النواة الأولى لهذه المؤسسة، كتب (هنري هاريس جيساب-Henry Harris Jessup)[1] رسالةً، قال فيها: «لنبتهلَ إلى اللهِ في سبيلِ تعميد نفوس أولئك الشبان الذين يترددون على الكليات ...، هذه الغاية هي قيادة الناسِ إلى المسيح وتعليمهم حتى يصبحوا أفرادًا مسيحيين وشعوبًا مسيحية»[2]، ليست الغايةُ من هذه الفقرةِ سردَ المزيدِ من الأدلة التي تُعد بالآلاف حولَ عملِ هذه الإرساليات التبشيريَّة، بل هو التأكيد على كون التعليم ليس مجرد هبة تمنحه الدول بالمجان للديانات الأخرى.

---

١ - كان مبشرًا بروتستانتيًا أمريكيًّا ومؤلفًا بارزًا كرّس حياته للعمل التبشيري الإنجيلي في سوريا (التي تُعرف الآن بلبنان وأجزاء أخرى من المنطقة). بدأ جيسوب مسيرته التبشيرية في عام ١٨٦٩ وارتبط بشكل وثيق بالأنشطة التبشيرية والتعليمية التي نظمتها الكنائس البروتستانتية الأمريكية في الشرق الأوسط.

٢ - مصطفى خالدي وعمرو فروخ: التبشير والاستعمار في البلاد العربية، ص٦٦.

فيما يتعلَّق بالجامعة الأمريكيَّة في لبنان والتي ابتدأت ككلية بروتستانتية؛ حيثُ عُرفت وقت تأسيسها باسم «الكلية البروتستانتية السوريَّة» عام ١٨٦٦م. وقد أسَّسها مبشرون أمريكيُّون بروتستانت خدمةً لهذا المذهب. في طريقة التَّعليم والمبادئ المستقاة منه لتغذيَّة الأجيال والناشئين، خاصةً أنَّ هذا الفرعَ المسيحيَّ دون غيره، يؤمّن المتطلَبات الرئيسة كافةً، سعيًا منه للسيطرة والإخضاع من خلال التأثير النفسي. كما يوفرُ التحررَ من الممارسات التقليديَّة للكَنيسة، والحريَّةَ الفرديَّةَ المُدَّعَاة من قِبلهم، يخلق مناخًا للتأثير في الأجيال الناشئة والشبابية، مما يعطي هذه المؤسسات زخمًا إضافيًا في تحقيق أبعادها وغاياتها المرجوة، وفي ذلك يؤكد (ستيفن بنروز - Stephen Penrose)[١]: «لقد أدى البرهان إلى أنَّ التعليمَ أثمن وسيلة استغلها المبشرون الأمريكيون في سعيهم لتنصير سورية ولبنان ...، ومن أجل ذلك تقرر أن يُختار رئيس الكلية البروتستانتية الإنجيلية «الجامعة الأميركية اليوم» من مبشري الإرسالية السورية»[٢].

تحولت الجامعةُ الأمريكيَّةُ في بيروت في عام ١٩٢٠م إلى الاسم المعروفة به حاليًا، خارجةً من العباءة الدينيَّة شكلاً، من أجل التَّمويه على وجود تحول في السياق العملي داخل هذه المؤسسة؛ من حيثُ الانتقال الكُلي إلى التعليم الوضعي المتعارَف، بعيدًا عن الصِبغة التبشيرية، لكن

١ - شغل منصب رئيس الجامعة الأمريكية ببيروت عام ١٩٤٨.

٢ - مصطفى خالدي، وعمرو فروخ: التبشير والاستعمار في البلاد العربية، ص٦٧.

هل حصل فعلاً هذا التحول؟ الجامعةُ ذاتُها تجيب عن هذا السؤال على لسان (بيتر دورمان- Peter Dorman)[١] عام ٢٠٠٩م، قائلاً: «تزدهر الجامعةُ الأمريكيَّةُ في بيروت اليوم بشكلٍ مختلفٍ جدًا عما رآه مؤسسوها المبشرون، ولكن رغم ذلك، وبعد هذا الوقت الطويل، تبقى الجامعة مكرسةً للمُثُل نفسها، المتمثلة بتخريج قادة متنورين ذوي رؤية»[٢].

يؤكد هنا الرئيسُ الخامسُ عشر للجامعة الأمريكية في بيروت، على بقاءِ ذات المُثُل والمبادئ المعمول بها عندما كانت تُسمى «الكلية البروتستانتية السورية». وفيما يتعلق بإطلاقِ صفة التنوير على المتخرجين القادة منها، فهنا المقصد ينطوي على اتجاهين مختلفين، لكنَّهما يلتقيان في الغاية ذاتها، أولهما: يتم ربط حركة التنوير بالمذهب البروتستانتي غالبًا؛ باعتباره شكّل التمهيدَ الأمثلَ لبداية هذه الحركةِ بين القرن السابع عشر والثامن عشر ميلادي، من خلال دعوته إلى الفرديَّة والتأكيد عليها كمسؤولية شخصية حتى فيما يتعلقُ بالدين وتفسير الكتاب المقدس و...، كذلك فتح هذا الاتجاه الجديد في حركة التنوير بابَ التشكيكِ بالسُّلطة التقليدية الموجودة، مضافًا لقضايا أُخرى متعلقة بالتعليم والمعرفة.

---

١ - عالم مصريات أمريكي، وشغل منصب الرئيس الخامس عشر للجامعة من عام ٢٠٠٨ إلى عام ٢٠١٥.

٢ - بيتي إس.أندرسون: الجامعة الأمريكية في بيروت القومية العربية والتعليم الليبرالي، ص ١٣.

ثانيهما: قد يقصد بالتنوير هنا، فصل خريجيّ هذه الجامعة عن جذورِهم الدينيَّة والروحيَّة والاجتماعيَّةِ، دون الحاجةِ إلى تنصيرهم. ففي مؤتمر القدس عام ١٩٣٥م، يُركز (صموئيل زويمر ـــ Samuel Zwemer)[١] في خطابِه في المؤتمر، على مسألةٍ خطيرةٍ وفاعلةٍ في الوقت نفسه، تتعلق بعمل المبشرين وهدف الجمعيات الإرسالية في إخراج المسلمين من الإسلام، حتى لو لم يتنصّروا، وتركهم معلقين خاوين، لا صلةَ لهم بالله، وهذا ما أشار إليه في كلمته متوجّها إلى المبشرين: «ليست 'مهمّتكم' هي إدخال المسلمين في المسيحيَّةِ فإنَّ في هذا هدايةً لهم وتكريمًا، وإنَّما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام، ليصبحَ مخلوقًا لا صلةَ له بالله، وبالتالي فلا صلةَ له بالأخلاقِ التي تعتمدُ عليها الأممُ في حياتها، وبذلك تكونون أنتم بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالكِ الإسلاميَّة»[٢].

إذًا، الغايةُ المقصودةُ من عمل الإرساليات هو الفصل دون الإلحاق،

---

١ - من أشهر المبشرين الأمريكيين، حتى لقب بنبي التنصير، ارتحل كثيراً في مدن الشرق الأوسط من أجل هذه المهمة، وكانت له مساهمات واسعة وخطرة في هذا المضمار.

٢ - نورة خالد السعد: التنصير في عالمنا الإسلامي (٢ من ٢)، (٢٠٠٩ -١٢-٩)، تاريخ الاطلاع(٢٠٢٤-١٢-٩)، على الرابط الآتي:

https://www.aleqt.com/200909/12//article_314056.htm

وبكلتا الحالتين، عندما يتم تفريغ الإنسان من عمقه الرُوحي والاجتماعي، يسهل تطويعه نفسيًّا، ومن ثمَّ يُصبح أكثرَ قابلية إلى الخضوع للآخر؛ لأنَّه يرى فيه المُنقذَ والمثالَ الأوضحَ للعيش، وهذا ما يُشكله جوهر الهيمنةِ بالذات.

وتأكيدًا على هذا المنحى -أي السياقات الشعاراتية- ونَسق إطلاق الحرية على مصراعيها، والخروج عن السائد من خلال تحدي القائم الموجود، استمرت الجامعةُ في السياسةِ ذاتِها، وهي قطع طلابها عن جذورِهم؛ بُغية تهيئتهم كي يكونوا أكثرَ قابلية لاتباع نمطِ الحياةِ الأمريكيَّة، بكل ما تحمله من مضامين، بعيدة كليًّا عن بيئتهم. وفي هذا الصدد، نجدُ الخطاباتِ السائدةَ في هذه الجامعةِ تتضمن هذه المَساراتِ التي تَضمر خلف بريقها كثيراً من الأبعادِ الأُخرى. لذلك، من الطبيعي أن نجدَ عباراتِ التعصبِ والكمال والحرية والمساواة وغيرها من المفاهيم تقتحم كلمات رؤساء هذه المؤسسة، ولذلك نجد (دانيال بليس -Daniel Bliss)[1] يقول في إحدى خطبه: «... إننا لا نهدف إلى صنع مارونيين أو يونانيين أو كاثوليك أو بروتستانت أو يهود أو مسلمين، بل إنَّنا نهدف إلى صنع رجال كاملين رجال مثاليين، رجال يشبهون الربَّ، وعلى غرار يسوع المسيح ...»[2].

---

١ - مبشّر أمريكي، ومؤسّس الجامعة الأمريكية في بيروت عام ١٨٦٦، وكان أول رئيس لها.

٢ - بيتي أس.إندرسون: الجامعة الأمريكية في بيروت القومية العربية والتعليم الليبرالي، ص٨١.

وفي سياقٍ متصل، وتأكيدًا على استمرار نهج الجامعةِ الأمريكيَّةِ مسار التمهيد لمنظومة الهيمنة الأمريكية، من خلال الأدوات الثقافية، يعود (بايارد دودج-Bayard Dodge)[١]، ليتحدث عن صُنع القادة في الشرق الأوسط، والمُلفت أنَّه استخدم المصطلحَ الجغرافي خاتمًا إياه بالجديد «الشرق الأدنى الجديد»، وهو مماثل تمامًا لمصطلح «الشرق الأوسط الجديد»، الذي ظهر في تسعينيات القرن الماضي، واكتسب زخمًا مع إدارة بوش الابن. والملاحَظ أيضًا أنَّ قوام هذه الرؤية السياسيَّة يعتمد على مبدأ التعاون وإزالة العقبات والخلافات من خلال تعضيد وتشبيك المصالح الاقتصاديَّة والسياسيَّة، والذي دعا إليه في البدء (شمعون بيرز-Shimon Peres)[٢] في كتابه الذي حمل العنوان ذاته، والذي أرادَ من خلالِ هذه الدعوى إقامةَ نظامٍ جديدٍ في المنطقة يكون أساسَه التعاونُ الاقتصاديُّ بين الدول العربية و«إسرائيل»، مضافًا إلى أنَّ هذا المصطلح نفسَه سُوِّقَ من خلال الشعارات التي حملتها خطابات هذه المؤسسات التعليمية، ولكن بصيغ قد تكون مختلفة بعض الشيء لتلائمَ السياقاتِ السياسيَّةَ

١ - أكاديمي ومستشرق أمريكي بارز، شغل منصب رئيس الجامعة الأمريكية في بيروت (AUB) بين عامي ١٩٢٣ و١٩٤٨.

٢ - عضو سابق في عصابة الهاغاناه، تولى رئاسة وزراء "إسرائيل" في ثلاث مناسبات، ويعدّ مسؤولا عن عدة جرائم بحق الفلسطينيين والعرب أشهرها مجزرة قانا الأولى بجنوب لبنان في أبريل/نيسان ١٩٩٦، رغم إنه في ١٩٩٤ تسلم جائزة نوبل للسلام!.

ولكونها موجهةً أيضًا إلى دول، لا إلى طلاب وأفراد. ومن هذه الشعارات: نَشْر الديمقراطيَّة والتعاون الاقتصادي ونبذ التطرف و...، وبالعودة إلى ما كتبه بايارد دودج، في عام١٩٢٠م: «الخُطوة الأولى في إنتاج القادةِ للشرقِ الأدنى الجديدِ هي تفكيك التعصب، وإيجاد كتلة متجانسة من المادة الخام، ومن كافةِ أنحاءِ العالم. والخُطوة الثَّانيةُ هي تدريب فتيان متأملين وأصحاء، يملأ عقولهم حب صحي للرياضة وقلوبهم مضبوطة على أسمى العواطف للتطور المسيحي»[١].

دعمت الجامعةُ الأمريكيَّةُ في بيروت قضيَّةَ التعليمِ المختلَط؛ حيثُ بدأت به منذ ١٩٠٥م لكن في نطاق ضيق، شمل التمريض، بينما تُعد سنة ١٩٢١م البداية الحقيقية لهذا الموضوعِ، حينما فتحت الجامعةُ أبوابَها أمامَ النساء وفي كل الاختصاصات والحقول، تزامنًا مع استمرار تدفق الأفكار الغربية إلى المنطقة، ورسوخ الكثير منها في الأوساط الثقافية والفكرية، والتي كانت هذه المؤسسة أحد أبوابه الرئيسية. والأمر لا يتعلق بقضيَّةِ التعليم من أجل المعرفة، بل استخدام الأمر كذريعةٍ وخُطوة تمهيدية إلى فصل النساء عن جذورهنَّ الاجتماعيَّة والدينيَّة، من خلال البيئةِ الجاذبة التي وفرتها الجامعةُ الأمريكيَّةُ. هذا القَطْعُ أو الفَصْلُ عن الجذور، تبلورت إحدى مظاهره من خلال القضايا المتعلقة بالحجابِ

١ - بيتي أس.أندرسون: الجامعة الأمريكية في بيروت القومية العربية والتعليم الليبرالي، ص٨٢.

والثياب وممارسة الحياة وفق نمطها الغربي، وفي هذا السياق يصف أحدُ الباحثين الغربيين وضع طالبات هذه الجامعة في نهاية ١٩٤٨م، بقوله: «أصبح الرقصُ مألوفًا وتشارك الفتياتُ في أدوارٍ مسرحيةٍ مع الرجال، ويذهبن في رحلات في نهاية الأسبوع للتزلج والنزهات ويسبحن بملابس سباحةٍ حديثة، ويلعبن التنس بالبناطيل القصيرة»[١]. الملاحظُ أيضًا أنَّ الإجراءات التي اتخذتها الجامعة في التعليم المُختلَط، لم تستطع القيامَ به الجامعاتُ المتواجدةُ في الأرضِ الأمريكيَّةِ إلا بعد سنوات. فكيف قامت هذه المؤسسةُ بهذه الخُطوة في ظل بيئةٍ رجعيةٍ ومتخلفةٍ -على حد تعبيرهم- في وقت لم تستطع كثير من الجامعات الأمريكيَّة هناك القيام بمثل هذه الخطوة؟! هذا التوافر القَصديُّ في العملِ والأسبقيَّةِ في إدخال هذا الموضوع، يؤكد -مثلما أسلفنا- أنَّ الأمرَ لا عَلاقةَ له بالتعليم وزيادةِ معرفةِ النساء، وتوفير المنافسة بين الجنسين في هذا المجال، وإلَّا لاتخذته معظمُ الجامعاتِ الأمريكيَّةِ في حينها، وهذا يُثبت أنَّ الموضوعَ مرتبطٌ بقضيَّةِ الإَخضَاعِ النَّفسي عبر الفصل عن الجذور الذي تحدثنا عنه، وقد أشار إلى هذه النقطة صراحة (جون ووتربيري-John Waterbury)[٢]،

١ - بيتي أس.أندرسون: الجامعة الأمريكية في بيروت القومية العربية والتعليم الليبرالي، ص١٣٣.

٢ - أكاديمي أمريكي بارز ومتخصص في الاقتصاد السياسي وعلاقات التنمية في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، كما كان رئيسًا للجامعة الأمريكية في بيروت (AUB) للفترة من عام ١٩٩٨ إلى ٢٠٠٨.

أثناء حفل افتتاح الكلية في العام ٢٠٠٢م، مُقدمًّا التهاني إلى الجامعة الأمريكيَّةِ على عملها هذه الخطوة في العام ١٩٢١م؛ «لأنَّه كان قد شكَّل خُطوة عظيمة كانت قد تجنَّبت اتخاذها العديد من الجامعات الشهيرة في الولايات المتحدة حتى عقود لاحقة»[١].

وفي جانب آخر، أخذت الجامعة الأمريكيَّةُ تَدعَمُ بشكل ملحوظٍ الفكرَ القَومِي من بوَّابَةِ المطبوعات والأبحاث التي ركزت على التراث العربي، وتفكيكِ الهويَّة الإسلاميَّة من خلال التأكيدِ المستمر على الاتجاه العُروبي، مضافًا إلى الأبحاث الخاصَّة فيما يتعلق بالأدبِ والنَّثر في مختلف العصور، سواء أكانت الجاهلية أم في صدرِ الإسلام وما بعده. وكذلك المجلات والدوريَّات ومراكز الدراساتِ المرتبطة بالجامعة، مثل مجلة أبحاث وغيرها، والندوات التي تُقام باستمرار حول قضايا الفكرِ القوميّ والهوية الذاتية للعرب. ولا ننسى أنَّ أهمَّ دعاة الفكرِ القوميِّ، (قسطنطين زريق) مؤلّف كتاب «القومية العربية ومراحل تطورها» كان رئيسًا بالوَكالة للجامعة.

إنَّ هذا الاهتمام الذي أبدَته الجامعةُ، وتشجيعها المستتر في أغلبِ الأحيان للفكر القومي، يأتي في سياقِ إيجاد البديل الأمثل للدين كخلفية سياسية وثقافية شاملة، وبعبارةٍ أُخرى، استكمال معادلة منظومة الهيمنة

١ - بيتي إس.أندرسون: الجامعة الأمريكية في بيروت القومية العربية والتعليم الليبرالي، ص١٥٥.

الثقافية بعدَ فصل الطُّلاب وقطعهم عن جذورهم العقديّة والاجتماعية، من خلال تغذيتهم بالفكرة القومية وتعزيز حضورها في السياقات كافةً، بل وعدها المسار الثوري في مجابهة الاستعمار وتعضيد حركة التحرر الوطني، فهكذا يتم تنميق الأشياء من أجل ترسيخها وزرعها.

ثَانيًا: الجَامعَةُ الأَمْريكيَّةُ فيْ القَاهرَة

إذًا، شكَّل التعليمُ منذُ البدءِ تكريسًا عمليًّا للإملاءاتِ النَّاعمة، التي تخدُمُ الإطارَ العامَ لمفهوم الهيمنة، حتى قبل تَشكُّله في مَيدان البحث العلميِّ، فالتعليمُ كأداة هيمنة يمثّل في حد ذاته مساحةً واسعةً لتحقيق الغاياتِ المرجوةِ من التَّأثيرِ على العيّنَاتِ والأهدافِ المراد استهدافها بعنايَّة دقيقة، فهو ليس لحظة عابرة من الزمن تُعرض على التلفاز، بل هو عمليةٌ مستمرةٌ من التلقين والخِطاب المباشر وغير المباشر مع المتلقي أو الطالب، بُغية تشكيل معرفته وتنميطها بالطريقة التي تخدُم القائمين على المنظومة التعليمية. ومن هنا، تأتي أهميةُ التعليمِ القُصوى، سواء في مراحله الأولى بالنسبة للدول الغربيَّة، والذي كان منوطًا بالتبشير، أو من خلال الفترات اللَّاحقة أو الحاليةِ التي نعيش في خِضَّمها. وفي هذا الصدد يؤكد (هوارد إس. مكدونالد - Howard S. McDonald)[1]: «ليس

١ - مبشّر أمريكي، ولد في ١٨ يوليو ١٨٩٤ في هولاداي في الولايات المتحدة، وتوفي في ٢٥ أكتوبر ١٩٨٦ في لوس ألاميتوس في الولايات المتحدة.

هناك وسيلةٌ للتأثيرِ على المواطنين أفضلَ من جمع أبنائهم في حجرة للدراسة»[١].

ومن الملاحظِ أيضًا، أنَّ العلاقاتِ التي كانت تنسجها أمريكا مع الدول فيما سبق، كانت عبر الإرساليات التبشيريَّة، ويمكن أنْ نَعزُوَ سبب ذلك إلى ضعف الموقف الأمريكي العام في حينها؛ كونها قُوى صاعدة، لذلك نراها تعتمد في الأُطر الرسميَّة والاجتماعيَّة مبدأَ الإرساليات، ففي مصرَ تحديدًا عام ١٨٤٥م، بدأ وصولُ الحملاتِ التبشيريَّةِ من جهة سوريا، وبدأت أعدادها بالتزايُدِ لَيصلَ في سنة ١٩١٧م لـ٥١٤ أمريكي. وعن أماكن تواجدِهم، ينقلُ أحدُ الباحثينَ ذلك بقوله: «عملوا بالتبشير في الوجه البحري والصعيد، وقد أنفقت هذه البعثات ما يزيد عن ٨٠٠ ألف جنيه إسترليني، لفتح عدةِ مدارس تلقى فيها الكثير من أبناء المسلمين تعليمهم»[٢].

من خلال معرفة طبيعة هذه الأماكن سواء أكانت في الوجه البحري أم الصعيد، نجدُ أنَّ سمةَ العيناتِ المُستهدَفة مختارةٌ بدقة، لاتخاذها بؤرًا للانطلاق أو الاكتفاء بها، ومن المُتعارَفِ أنَّ مثلَ هذه المناطق، ونتيجة

١ -إيمان عبد الله التهامي ومحمد التلال: السياسة الأمريكية التبشيرية تجاه التعليم العالي العام والأزهري في مصر منذ نشأة الجامعة الأمريكية حتى أعقاب ثورة عام ١٩٥٢، ص٥٠٤.

٢ - إيمان عبد الله التهامي ومحمد التلال: السياسة الأمريكية التبشيرية تجاه التعليم العالي العام والأزهري في مصر منذ نشأة الجامعة الأمريكية حتى أعقاب ثورة عام ١٩٥٢، ص٥٠٣.

لأسباب عديدة، خاصةً فيما يتعلقُ بالصعيد بالنسبة إلى الدولة المصريَّة، نجدُ أنَّ ثمةَ سمة جامعة من الممكن أن تُتَّخذَ كعينة إجماليَّة تُطبقُ على بقيَّة الأماكن المستهدفة، وهي الحضورُ القَوي للعادات الاجتماعيَّة الذي يقابلُه ضعفٌ في مستوى التعليم بشكلٍ عام، وهذا لا يعني تلازُم كلا الأمرين معًا أو أنَّ أحدَهما سببًا للآخر، بل قد يكون المرادُ أيضًا ترسيخَ هذه الفكرة الخاطئة من ترابطِ كلا الأمرين، في ذِهنيَّة النَّاس من أجل دفعهم تلقائيًّا لتحقيق كثير من الخُطوات التي يرغبُ فيها المستهدفون. ومع كل ما ملكته هذه الحملات التبشيريَّة من تسهيلات من قِبل الحكومات المحليَّة والمركزيَّة في البلدان، وما تتلقاهُ من دعمٍ من قِبل الدول الكبرى وحمايتها، كانت معظم محاولاتهم تبوءُ بالفشل، ممَّا دفعهم لعقد المؤتمرات الكبرى لمناقشة هذه الإخفاقات. وإيجاد الوسائلِ اللَّازمة لإنجاح المهام التبشيريَّة. هذا الفشل الذريع قد دفع بـ(صموئيل زويمر- Samuel Zwemer للقول: "قبل أنْ تَبنِي النَّصرانيَّة في قلوب المسلمين يجب أن تهدمَ الإسلام في نفوسهم، حتى إذا أصبحوا غيرَ مسلمين سَهُل علينا أو على من يأتي بعدنا أن يبنوا النَّصرانيَّةَ في نفوسهم"[1].

أما من حيث الفئات المستهدفة، فسيتم فورًا ملاحظة أنَّ الكل تحت نير

١ - إيمان عبد الله التهامي ومحمد التلال: السياسة الأمريكية التبشيرية تجاه التعليم العالي العام والأزهري في مصر منذ نشأة الجامعة الأمريكية حتى أعقاب ثورة عام ١٩٥٢، ص٥٠٥-٥٠٦.

هذه العمليات التبشيريَّة، ولكن لكل فئة ما يناسبها، فحالة طالب الأزهر تختلف عن الفلاح، وابن المدينة الأُمّيِّ عن المثقّف بشكل عام، وكذلك الأمر حينما يتعلق بالنساء، وكل منهنَّ أيضًا بحسب ما تقتضيه مكانتها وتعليمها ومستواها الاجتماعي. ورغم الأساليب الملتوية التي كانت تُبديها هذه الإرساليات من أجل تحقيق أهدافِها المخططة، لكنَّها بالمُجمل لم تكن ناجعة ولا فاعلة في إمكانية عمل اختراق كبير في المجتمع المسلم في مصر، فبعض الحوادث التي تسببت بها الحملات التبشيرية، مثل حالة (زويمر) في الأزهر، أدّت إلى ردات فعل مضادة على المستويين الشعبي والسياسي، بل وساهمت في خلق حالات عدائية، بعضها كاد يصل إلى الصدام.

لم يعد المناخ مهيئًا في المجتمعات الإسلامية على تقبُل فكرة وجود الإرساليات أو التعاطي معها كظاهرة اعتيادية، يمكن التسليم بوجودها، خاصة بعد ازدياد حدة الاحتكاكات التي مارسها المبشرون مع المجتمع، الأمر الذي دفع إلى إيجاد صِيَغ أكثر قبولاً وملائمة. ففي عام ١٨٩٩م، جرى اقتراح ثلاثة مبشرين لإنشاء مؤسسة تعليمية أمريكية للمستوى الجامعي لتعليم المبشرين الجدد وتدريبهم[١]، سيُمكّن هؤلاء المبشرّون من معرفة البيئة المصرية أكثر، وطريقة تلقيها، ومكامن التأثر فيها،

١ - عماد حسين: الجامعة الأمريكية في القاهرة بين ١٩١٩_١٩٦٧، ص ٣٦.

لتساعدهم في عملهم ضمن إطار الإرساليات، مضافًا لعملية تعَلُّم اللغة العربية، وممارستها الفعلية من خلال الحوارات التي سيوفرها جو هذه المؤسسة، مما يتيح إتقانها من قبل هؤلاء.

كانت مصرُ واقعةً تحتَ الاحتلالِ البريطانيّ في وقتها، وقد رفضت سُلطةُ الاحتلال إنشاءَ جامعةٍ مسيحيَّةٍ في تلك المرحلةِ في القاهرة، خاصةً مع اندلاع الحرب العالمية الأولى. انسجم مع هذا الرفض -فيما بعد- (تشارلز واطسون- Charles Watson)[1]، الذي كان أحدَ أركان تأسيس هذه الجامعة، وكان يرى أنَّ وجودَ مؤسسةٍ تابعة للكَنيسة في ظلِّ مجتمعٍ مسلمٍ سيقيد من حركتها ويجعلُها غيرَ فاعلةٍ مستقبلاً. وبالرغم من ذلك، يقولُ الباحث(عماد حسين): « والجديرُ بالذِّكرِ إنَّه رغم حرص مجلس أوصياء الجامعة على استقلال الجامعة، إلَّا أنَّ كافةَ العاملين فيها بدءًا من رئيسها وحتى نهاية السُّلَّمِ الوظيفي بها، كانوا مدرجين على قوائم المرتبات بالإرساليات الأمريكيَّة، وقد استمر هذا الوضعُ حتى عام ١٩٣٩م، مما يعكس أنَّ إدارةَ الجامعةِ في هذه الفترة ارتبطتْ بأهداف الإرساليَّاتِ الأمريكيَّةِ، ومن جانبٍ آخر، فإنَّ جانبًا معتبراً من تمويل الجامعةِ كان يأتي من ميزانيَّة الإرساليَّاتِ ...»[2]. مضافًا إلى ترشيح مجلس الأمناء الخاص

١ - أول رئيس للجامعة الأمريكية في القاهرة، وقد ظل واطسون رئيسًا للجامعة منذ إنشائها إلى أن خلفه جون بادو في رئاستها سنة ١٩٤٥.

٢ - عماد حسين: الجامعة الأمريكية في القاهرة بين ١٩١٩_١٩٦٧، ص٤٢.

بالشركة «الجامعة الأمريكية في القاهرة»، كان يتمُّ وَفقَ التفاوضِ مع الكنائس المؤسِّسَة لها، والتي منها: الكنيسة المَشيخيَّة الشمالية، والكنيسة المَشيَخيَّة الإصلاحيَّة، والكنيسة الأسقُفية البروتستانتية، وغيرها.

هذا يُبرهن على بقاءِ هذه المؤسسة ضمنَ أُطر العملِ الكنائسيِّ أو التبشيريِّ، لكنْ بِصيَغٍ أكثر قبولاً، ومنها الابتعاد عن المسميات المباشرة التي كانت تعمل وفقها الإرساليات. ومما لاشك فيه أنَّ الهدفَ كان تحويلَ المجتمعاتِ المحيطةِ إلى بيئاتٍ خَصبةٍ للأفكار الغربيَّة، ونمطِ الحياة الأمريكيَّة الذي عُد في بداياته وقت تأسيس الجامعة. وهذه المسارات يؤكدها (جون بادو - John S. Badeau)[1] بقوله:» إنَّ الجامعةَ تهدف إلى مَدِّ مصر بما لا تملكه، ومن ثمَّ فهي تهدفُ إلى نقلِ الثَّقافةِ والقِيَمِ الأمريكيَّةِ إلى العالمِ العربيّ»[2].

في قبال ذلك، لَم تكنْ الجامعةُ الأمريكيَّةُ وحدها -في القاهرة- أداةً لتنفيذ السياسات التعليمية، وبسط النفوذ الثقافيِّ على المجتمعِ المصري، بل كان هناك العديدُ من المؤسَّسَات الأُخرى التي تحملُ أسماءً وعناوين مختلفةً، تُشكّل مع الجامعة الأمريكيَّةِ سلسلةً من المشاريع التي نفذتها

١ - مبشّر أمريكي شغل من ١٩٤٥-١٩٥٣ كان رئيسا للجامعة الأمريكية في القاهرة، حيث كان يدرس الدين والفلسفة، وبين عامي ١٩٣٦ و عام ١٩٤٥، كان عميدا لكلية الآداب والعلوم، كما شغل منصب سفير الولايات المتحدة في القاهرة ١٩٦١-١٩٦٤.

٢ - عماد حسين: الجامعة الأمريكية في القاهرة بين ١٩١٩_١٩٦٧، ص١٠٣.

الإدارةُ الأمريكيَّةُ، مثل مدارس سانت جونز ومدارس الإرساليات البروتستانتية، وكليَّة رمسيس للبنات التي كانت تستهدف تعليم الفتيات المصرية، وغيرها من المؤسسات والمعاهد المتخصصة التي أُنشئت لأغراض معيَّنة، لكن تمَّ التركيزُ على هذه المؤسَّسَةِ لأهميتها، مضافًا لشيوع اسمها واستمرارها حتى الآن.

ركّزَت الجامعةُ الأمريكيَّةُ في المراحل التالية على مواكبة الأحداث التي كانت تجري، ودراستها بطريقةٍ دقيقةٍ من أجل إيجاد الكيفية المثالية التي يتم العملُ بها، طبقًا لمتطلبات هذه المرحلة أو تلك، من أجلِ أنْ تكتملَ عمليةُ دمجِ جهود الهيمنةِ الثقافيَّةِ بالشكل الأمثل. وفي هذا الصدد كشفت بعض الوثائق عن وجودِ مراسلاتٍ بين السفارةِ الأمريكيَّة في القاهرة وهذه الجامعة، من أجل إرسال المعلومات من قِبل الأخيرة إلى السفارة، «... بتاريخ نوفمبر ١٩٣٤م، ... يُطلب من الجامعة سرعة إرسال تقرير المعلومات المعتادة إليها، وذلك لإرساله إلى الخارجيَّة الأمريكيَّة، وهذا يعكس أنَّ هناك تعاون سابق في إطار توفير المعلومات»[١].

ونُلاحظ ورود كلمة «المعتادة» في طيَّاتِ الوثيقةِ والطلب الذي أرسلته السفارة، وهذا ما يوضح أنَّ التعاونَ بين الجهتين لم يكن استثنائيًا أو طارئًا، بل هو من صميمِ عمل الجامعةِ الأمريكيَّةِ في القاهرة، كمؤسسةٍ

١ - عماد حسين: الجامعة الأمريكية في القاهرة بين ١٩١٩_١٩٦٧، ص١٣٩.

مرتبطة بالإدارة السياسيَّة للبيت الأبيض، كما نُلاحظ أيضًا -وهو ما يدعم هذا الاتجاه- أَنَّ في خِضَم الدخول المعلَن والصريح للولايات المتحدة الأمريكيَّة إلى الحرب العالميَّة الثَّانِيَة سنة ١٩٤١م عقب هجوم «بيرل هاربر»، وفي إطار تحديد أماكن مقر القيادة الرئيسيَّة لقواتها في الشرق الأوسط، والتي اتخذته بمعزل عن حلفائها حتى، «وبالفعل تم وصول عناصر قيادية من القوات الأمريكية في بدايات عام ١٩٤٢م، وتمَّ الاتصال بالجامعة لتكون مبانيها ومكاتبها هي مقر قيادة القوات الأمريكية، وبالفعل تمَّ توقيعُ اتفاق رسمي بهذا الشأن عام ١٩٤٣م»[١]. يقود هذا الحدثُ المهمُّ إلى اكتشاف وجود مكتب للمعلومات بالتعاون مع جهازِ الاستخبارات الأمريكي، والمُلَاحَظ أيضًا أنَّ أحد العاملين فيه وهو (وليام أيدي - William A.Eddy)[٢] ضابطٌ برتبة «كولونيل»، الذي سبق وأن عمل رئيسًا لقسم اللغة الإنجليزية في الجامعة.

إذًا، رأينا كيف مرَّت الجامعةُ الأمريكيَّةُ في القاهرة من بداياتها التبشيريَّةِ والإرساليَّةِ، وصولاً إلى تحولها لمؤسَّسة تعليميَّة وصياغتها لأشكال مختلفة، بدءًا من اعتمادها على مبدأ النخبويَّة، ومن ثَمَّ التركيز على طبقاتٍ

١ - عماد حسين: الجامعة الأمريكية في القاهرة بين ١٩١٩_١٩٦٧، ص١٣٨.

٢ - كان مبعوثًا ساميًا من الولايات المتحدة إلى المملكة العربية السعودية ومستشارًا لشركة النفط العربية الأمريكية وكشخصية محورية في تطوير علاقة الولايات المتحدة بالمملكة العربية السعودية ودول الشرق الأوسط الأخرى.

معيَّنةٍ من المجتمعِ المِصريِّ، التي ستكون فيما بعد الصفوة المستقبلية للدولة ككل وفي مجالات مختلفة، وليس انتهاء باندماجها في كثير من الظروف المرحلية التي تمر. فالمرونة التي أبدتها الجامعةُ جعلتها تبني صلاتٍ وثيقةً مع كبار قيادات المؤسَّسة العسكرية بعد انقلاب ١٩٥٢م، وسيطرة (جمال عبد الناصر) ورفاقه على السلطة. ومن مظاهر هذه الصلة، حضور (محمد نجيب) أول رئيس لجمهورية مصر بعد الانقلاب، و(جمال عبد الناصر) و(عبد الخالق حسونة) الذي كان يشغل وقتذاك منصب الأمين العام لجامعة الدول العربية. «وفي هذا الاتجاه بدأ (كليلاند) يتصل برجال الثورة بشكل مباشر، وعلى رأسهم اللواء (محمد نجيب)، وقدَّمَ دعوةً لرجالِ النظامِ الجديد لحضور يوم اللغة العربية في الجامعة في مايو ١٩٥٤م»[١].

ثَالثًا: الجَامعَةُ الأَمريكيَّةُ فيْ العرَاق.

إنَّ وجودَ الجامعةِ الأَمريكيَّةِ كَمؤسَّسةَ تعليميَّةَ في العراق جديدٌ نسبيًّا، إذا ما أردنا فصلها عن المدارس والإرساليات الأمريكيَّةَ التبشيريَّةَ؛ حيثُ يعود تاريخُ إنشائها في الأراضي العراقية إلى سنة ٢٠٠٧م في «السُليمانيَّة»، ومن ثمَّ «دهوك» ٢٠١٤م. وفيما يتعلق ببغداد، فقد تأسَّست حديثًا عام ٢٠٢١م. لكن باعتبار كون هذه المؤسسة تنتمي إلى منظومةِ

١ - عماد حسين: الجامعة الأمريكية في القاهرة بين ١٩١٩_١٩٦٧، ص١٦٦.

عملٍ متكاملة، تأتي منسجمةً مع بقيَّة الإستراتيجيات السياسيَّة والثقافيَّة التي انتهجتها الإدارة الأمريكيَّة. يُفضي بنا ذلك تلقائيًّا إلى ربطها بمدارس الإرساليَّات والحملات التبشيريَّة، حتى وإنْ لم تظهرْ أي صلة مباشرة أو واضحة بين الأمرين؛ لأنَّ ارتباطهما ناشئ بديهيًا بحكم كونهما أدوات استعمارية في الجانب الثقافي. يَفرض هذا الأمرُ علينا المرورَ التاريخيَّ الموجزَ على قضيَّة التعليم التبشيري في العراق.

لعلَّ المؤشّرَ الواضحَ، ومن الممكن أن نطلقَ عليه بدايةَ التعليمِ التبشيري الإنجيلي بشكلٍ عام، هو تاريخ وصول (أنتوني غروفز - Anthony Groves)[1] إلى بغداد نهايةِ عام ١٨٢٩م، وقد أسَّس فيها مدارسَ لتعليم الأرمن ذكورًا وإناثًا. لكن بحسب إحدى الباحثات، تعود قضية التعليم وفق الإرساليات الأمريكية إلى: "عام ١٨٣٣م 'حيث' أوفدَ مجلس الوكلاء الأمريكي للإرساليات الأجنبية المبشرين (جوستن بركنز) و)أساهل جرانت) ...، فقاما بتأسيس محطة رئيسية في غربي إيران، ومنها امتد نشاط الإرسالية ليشملَ جبال كردستان والموصل ...، وبناءً على توصيتهما افتتح المجلسُ الأمريكي محطةً في الموصل في ١٨٤١م ..."[2].

---

١ - وصف بأنه "والد بعثات الإيمان". أطلق أول بعثة بروتستانتية للمسلمين الناطقين باللغة العربية، واستقر في بغداد. ويكيبيديا.

٢ - ناهدة حسين علي الأسدي: الإرساليات التبشيرية الأمريكية في العراق وموقف الدولة العثمانية، ص٢٤.

الجديرُ بالذكرِ، أنَّ إحدى الإرساليات أرادت تأسيسَ جامعةٍ لها في الموصل عام ١٨٩٢م، لكنَّ نتيجةَ التحفظات التي أبداها الأهالي، تم التنازل عن الفكرةِ وتحويلها إلى بيروت. وللوقوف على أمرين؛ أولهما عدد المدارس التبشيرية الأمريكية، وثانيهما دورها السياسي والثقافي في العراق، يكفي أن نَذكرَ أنَّ في العام ١٨٧٥م، حينما أصدرت السُّلطة العثمانيةُ وقتها الفرمان الخاص بضرورة الرجوع مباشرة إلى السلطان في ترخيص إنشاء المدارس لا من إدارة المعارف المحلية، قد أُغلقت ٣٠ مدرسةً تبشيريَّة أمريكية وهُددت ٦٢ مدرسةً أُخرى بالإغلاق، وهذا يكشف عن عدد المدارس الذي يُقدر بالعشرات إن لم يكن بالمئات[١].

اتخذت هذه الإرساليات البصرةَ كمركزٍ رئيسي في عملياتهم التبشيريَّة، ومنطلقًا منها إلى الجزيرة العربية والخليج. واتخاذ البصرة كنقطة انطلاق يبدو معروفًا في الغالب؛ لأنَّه متعلقٌ بالموقع الجغرافي لهذه المدينة، الذي يُشكل محورًا إستراتيجيًا مؤثرًا من الناحية "الجيبولوتيكية"، هذا المنحى في الاختيار يكشف عن دراسة عميقة واهتمام شديد لعمل هذه الإرساليات من قِبل السُّلطة الأمريكيَّةِ، ومهما اختفى دورُها تأريخيًّا من الأوراق فيما يتعلق بهذا الصدد، فستبقى هي صاحبة المسؤولية الأُولى والأخيرة في تحريك هذه الفعالية أو غيرها. وتأكيدًا على أهميَّةِ هذا الاختيار لهم، قال) جيمس كانتين-

١ - ناهدة حسين علي الأسدي: الإرساليات التبشيرية الأمريكية في العراق وموقف الدولة العثمانية، ص٢٧.

James Cantine)[١] في رسالة له: «يبدو أنَّ هذا المكان 'البصرة' هو الأنسب لفتح ثغرة نحو الهدف»[٢]. هذا المنطقُ الاستهدافي والعلني الذي يتحدث به (كانتين)، يشير ببساطة إلى دوافع هذا الاهتمام المفرط من قبل أمريكا في قضايا التعليم التبشيري، كبوابةٍ مهمَّةٍ في مجال نجاح الهيمنةِ، وذلك من خلال نشر المفاهيم الأمريكيَّة والغربيةً من خلال فعل التواصل الذي توفره المهنةُ التدريسيَّةُ. فأول خُطوة عملية من الممكن أن تحققَ كلَّ هذه الأمور، هو البدء بضرب المعتقدات القائمة من أجل إفراغ وفصل الفرد والجماعة عن جذورهم وهويتهم الروحية والدينية، لذلك نرى تغليف المفاهيمَ الأمريكيَّةَ والغربية عمومًا في تلك المرحلة بالتبشير، فـ«التعليم عموماً عند مبشري الإرسالية الأميركية هو تنصيرُ التلاميذ. فقد كان أحدُ الدروس اليوميَّةِ للتلاميذ مثلاً هو قراءة الإنجيل وتفسيره، كما أنَّ النشيدَ اليومي للتلاميذ هو أدعية مسيحية خالصة»[٣]. وشهدت سنة ١٩٠٨م

---

١ - كان مبشّرًا وباحثًا ورحالةً أمريكي، شارك في تأسيس البعثة العربية مع جون لانسينغ وصمويل مارينوس زويمر. ويكيبيديا.

٢ - حكايات التبشير المسيحي الأميركي في العراق ١٩٠٠ ـــ ١٩٣٥ ثرثرة فوق دجلة، (٢٠٠٤-٧-٣)، تاريخ الاطلاع(٢٠٢٤-١٢-١٦)، على الرابط الآتي:
https://www.alqabas.com/article/164346

٣ - حكايات التبشير المسيحي الأميركي في العراق ١٩٠٠ ـــ ١٩٣٥ ثرثرة فوق دجلة، (٢٠٠٤-٧-٣)، تاريخ الاطلاع(٢٠٢٤-١٢-١٦)، على الرابط الآتي:
https://www.alqabas.com/article/164346.

افتتاح أول مدرسة للإرساليَّة العربية في البصرة، وكانت تُقسَّم في حينها إلى مدرستين: واحدة للذكور وقد سُميت «الرجاء العالي»، بينما أُطلق «الرجاء للبنات» كعنوان للإناث.

ساهم التعليمُ بتغلغل النفوذ الأمريكيّ داخلَ أروقة الدَّولة العثمانيَّة ومن ضمنها العراق؛ إذ سمح لها بالهيمنة الثقافية على طبقات معينة من مجتمعات هذه البلدان، خاصة المتوسطة والغنية، والمؤهلة لتسلم مقاليد الإدارة والوجاهة مستقبلاً، مما أمَّن ترسيخ هذا النفوذ. وقد أكد على هذه الحقيقة (ويليام هوارد تافت -William Howard Taf)[1] بقوله: «إنَّ المؤسسات التربوية الأمريكية كان لها الفضل في التغلغل الأمريكي في الدولة العثمانيَّة، بفضل جهودها السليمة وما خلفته من كوادر أسهمت في نمو التجارة الأمريكية مع المنطقة»[2]. إنَّ التعليمَ وفق المنظور السياسي للدول الكبرى يشكل أداةً إستراتيجية في تحقيق كثير من الأهداف، ويفتح المجال لتحقيق الأُخرى. ولذلك، نلاحظ كيف استفادت الإدارة الأمريكية من التعليم حتى في المجال الاقتصادي من خلال تنمية التجارة مع الدولة

١ - محام وسياسي أمريكي شغل منصب الرئيس السابع والعشرين للولايات المتحدة (١٩٠٩-١٩١٣) ورئيس المحكمة العليا العاشر للولايات المتحدة (١٩٢١-١٩٣٠)، وهو الشخص الوحيد الذي شغل كلا المنصبين.

٢ - قحطان حميد كاظم وإبراهيم محمد سليمان: سياسية الولايات المتحدة الأمريكية اتجاه التعليم الوطني في العراق(١٩٢١-١٩٥٨)، ص٧.

العثمانية، والذي مهد الأرضية لكل هذا العمل هو التعليم، بالتوازي طبعًا مع الأدوات والأساليب الأخرى.

كما ويُلاحظ أيضًا اعتماد الاحتلال البريطاني على المنظومة التعليمية الأمريكية لإدارة شؤون المدارس الثانوية في سنواته الأولى، فالجهد البريطاني وقتذاك كان مُنصَّبًا في معظم الأحيان على المجال العسكري، مما جعله لا يولي اهتمامًا كبيراً بالمؤسسات التعليمية في العراق، إلَّا في نطاق ضيق، وضمن المراحل الابتدائية، فاعتقدوا أنَّ نجاحَ تجربة المدارس الابتدائية هو السبيل الأهم للنظر فيما بعد بالتعليم الثانوي، وعلى الأولى توقفت الأخيرة، فما لم تنجح لم تكن لتوجد أو توليها سلطات الاحتلال اهتمامًا، لذلك أُوكلت مهام التعليم الثانوي إلى مدرسة الرجاء العالي، مضافًا لتقديمهم أي البريطانيون (٥٠٠٠ روبية) إليها، مقابل تنظيم شؤون المدارس الجديدة[١]. شهدت الإرساليات التبشيرية الأمريكية توسعًا في نشاطاتها التعليمية داخل العراق، خاصةً مع تأسيس الدولة العراقية، وتحول السلطة البريطانية من الاحتلال للانتداب، وفسحها المجال شكليًا لنشوء الحكومات العراقية. وفي مجال التأكيد على هذا المنحى الذي شهده عمل التعليم التبشيري الأميركي، تأسست عام ١٩٢٣م «الإرسالية التبشيرية المتحدة في بلاد ما بين النهرين The United Mission in-

١ - قحطان حميد كاظم وإبراهيم محمد سليمان: سياسية الولايات المتحدة الأمريكية اتجاه التعليم الوطني في العراق(١٩٢١-١٩٥٨)، ص١٠.

Mesopotamia"؛ حيثُ عمدت بعد مباشرة عملها الفعلي بعد سنة من تأسيسها، على توسيع الرقعة الجغرافية لإنشاء المدارس التبشيرية، مما زاد من عدد هذه المدرس، كذلك شملت العديد من مدن العراق: "دهوك وبغداد وكركوك والحلة". وفيما يتعلق بالموصل يذكر باحثان: "أمَّا في الموصل فقد فتحت الإرسالية دارًا للمبشرين الأمريكيين في محلة خزرج عام ١٩٢٤ أصبح منطلقًا لعمل الإرسالية في المدينة، حيث الغالبية المسيحية"[١].

وللوقوف أكثر على أهمية عمل هذه الإرساليات بالنسبة للإدارة الأمريكية، وكونها جزءًا جوهريًّا وفاعلاً في منظومتها السياسية والثقافية لتحقيق الهيمنة، ربطت أمريكا قضية الاعتراف بالعراق كبلدٍ مستقل بإفساح المجال أمام هذه المدارس لممارسة عملها بحُريّة دون مضايقات، خاصة بعد تشريع قانون المعارف العامة في سنة ١٩٢٩م، الذي فرض في بعض بنوده إخضاع هذه المؤسسات للتفتيش وإلزامها بالتدريس باللغة العربية وتاريخ العراق: «... أظهرت الحكومة الأمريكية قلقها على مؤسساتها التبشيرية والتعليمية في العراق، وتزايدت مطالباتها لسلطة الانتداب البريطاني وللحكومة العراقية بتقديم التسهيلات والمساعدات الممكنة للمدارس التبشيرية الأمريكية كشرط أساسي للاعتراف بالعراق

١ - قحطان حميد كاظم وإبراهيم محمد سليمان: سياسية الولايات المتحدة الأمريكية اتجاه التعليم الوطني في العراق(١٩٢١-١٩٥٨)، ص١٢.

كدولة مستقلة ...»[١].

لم تستمر السلطة العراقية وقتها في مقاومة الضغط الأمريكي خاصةً في ظل الانتداب البريطاني، وسيطرته المطلقة على أغلب مفاصل الدولة، وقد تجسد هذا الموقف من خلال توقيع المعاهدة الثلاثية بين العراق بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية في سنة ١٩٣٠م، التي أعطت الامتيازات للرعايا الأمريكيين، مما يعني إلغاء واقعي للقيود التي فُرضت على المدارس التبشيرية. فـ»يكون للولايات المتحدة ورعاياها جميع الحقوق والمنافع المؤَمِّنة لأعضاء جمعية الأمم ورعاياها بمقتضى نصوص القرارات والمعاهدات الآنفة الذكر، وتتمتع هي ورعاياها بالحقوق والمنافع المذكورة، وذلك رغمًا عن إنها ليست عضوا في جمعية الأمم»[٢]. لم يمضِ وقت طويل حتى ظهرت أهميَّةُ المؤسسات التعليمية الأمريكية بالنسبة للسياسة الأمريكية في العراق؛ إذ سرعان ما بدأ خريجو هذه المدارس في

---

١ - قحطان حميد كاظم وإبراهيم محمد سليمان: سياسية الولايات المتحدة الأمريكية اتجاه التعليم الوطني في العراق(١٩٢١-١٩٥٨)، ص١٣.

٢ - إياد عبد اللطيف سالم: العيد الوطني العراقي الجديد – القسم الرابع،(٢٠٢١-١٠-١٢)، تاريخ الاطلاع(٢٠٢٤-١٢-١٨)، على الرابط الآتي:
https://kitabat.com/%D8%A7%D984%%D8%B9%D98%A%D8%AF-%D8%A7%D984%%D988%%D8%B7%D986%%D98%A-%D8%A7%D984%%D8%B9%D8%B1%D8%A7%D982%%D98%A-%D8%A7%D984%%D8%AC%D8%AF%D98%A%D8%AF-

تبوُّءِ مناصبَ مهمةٍ ومؤثرةٍ في الدولة العراقية، فعندما أظهر العراق رغبةً في تطوير الجانب التعليمي في البلاد، عمل مجموعةٌ من خريجي المؤسسات التعليمية الأمريكيَّة الذين كانوا يعملون في وَزارةِ المعارف على جرِّ الأمر مباشرةً إلى الاتجاه الأمريكي عبر الاستعانة بخبراتهم في هذا المجال لتطوير الواقع التعليمي في البلد، ومن هؤلاء (متي عقراوي)[١] الذي بعث برسالة إلى (بول مونرو - Paul Monroe)[٢]، مدير معهد التربية العالمي في الجامعة ذاتها التي درس فيها الماجستير، أي كولومبيا، وقد جاء في الرسالة: "رغبة الحكومة العراقية في الاستفادة من خبراتكم الواسعة في مجال التعليم في إصلاح النظام التعليمي العراقي كونكم من المهتمين بشؤون الشرق الأدنى وبخاصة في مجال التطورات التعليمية"[٣].

وقد تم الأمر بالفعل، وشُكلت فيما بعد لجنةٌ من الخبراء الأمريكيين زارت العراق، سميت بلجنة (مونرو)، وقد انتُقدت هذه اللجنة انتقادًا شديدًا

---

١ - أول رئيس لجامعة بغداد، ولد في الموصل ثم انتقل إلى بيروت للتدريس في مدرسة إعدادية تابعة للجامعة الأمريكية هناك، أكمل دراسته للبكالوريوس من الجامعة الأمريكية في ١٩٢٤

٢ - أكاديمي أمريكي بارز في مجال التربية والتعليم، ولد عام ١٨٦٩ وتوفي عام ١٩٤٧. كان له دور كبير في تطور التعليم الحديث في العديد من دول العالم، بما في ذلك العراق.

٣ - قحطان حميد كاظم وإبراهيم محمد سليمان: سياسية الولايات المتحدة الأمريكية اتجاه التعليم الوطني في العراق(١٩٢١-١٩٥٨)، ص١٤.

من قبل المختصين بالمعارف العراقية، وفي مقدمتهم (ساطع الحصري)، الذي وجَّه رسائل بذلك، وكشف عن كثير من مواطن الضعف في التقرير، والتدخل في الأمور السياسية والدينية واللعب على وتر الأقليات، بالرغم من أنَّها لجنةُ تقويم للواقع التعليمي في العراق.

وبمرور الوقت، أخذت هذه العلاقة تمر بمطبات عدة، تنمو في بعض الأحيان فتتسع، وتضيق في أحيان أخُرى. وفي الوقت الحاضر، فإنَّ تأثيرَ الجامعة الأمريكية في العراق وإنْ لايزال غير واضح بعض الشيء، إلَّا أنَّ انخراط هذه المؤسسة في الجو العراقي وحده يُعد كافيًا لقياس أثرها من خلال منظومة العمل الأمريكي في العراق إلى جانب الأدوات الأخرى، أو من خلال نقاط الالتقاء التي من الممكن أن تجمعَ بين التجربتين اللبنانية والمصرية مع نظريتهما العراقية.

ويمُكن لنا إجمالاً بيان الخطوط العامة التي ستعمل وفقها الجامعةُ الأمريكيةُ من خلال المعطيات التي ذكرناها، وهي كالآتي:

أ. رغم عدم مُضي مدة طويلة على تأسيس الجامعة الأمريكية في بغداد، فإنَّ خصوصية المشهد العراقي والوضع العام للبلد، من الممكن أن يسمحَ لهذه الجامعة بتجاوز هذه النقطة.

ب. تُسيطر أمريكا منذُ احتلالها العراق عام ٢٠٠٣م حتى الآن على مُجمل السياسات العامة تقريبًا للدولة العراقية، سواء بشكلٍ مباشر أو غير مباشر من خلال الضغط أو عبر أدواتها. تتضمن

هذه السياسات العامة المجال التعليمي أيضًا، مما يُهيئ للجامعة عبور كثير من الإشكاليات التي قد واجهتها سابقًا في الحالتين اللبنانية والمصرية.

ج. تذويب الهويَّة الدينية والاجتماعية، من خلال انخراط الجامعة مع بقية الأدوات الأمريكية في البلد، والعمل وفق هذا المسار من خلال برامجها العديدة.

د. تهيئةُ فئاتٍ محددة من الطلاب أثناء الدراسة من أجل تصديرهم كواجهةٍ إعلاميَّةٍ وثقافيَّة مستقبلاً، للتأثير في الرأي العام العراقي وقيادته في بعض الأحيان.

ه. تراهن الأدوات الأمريكية منذ عام ٢٠٠٣م على تصدير فشل الأحزاب الإسلامية في الحكم، كدعاية مستمرةٍ، وتحميلها تردي الأوضاع في كثير من المجالات العراقية، وهذا ما ستستند إليه الجامعة في إضعاف صلة الطلاب بهويتهم العقدية.

■ المَبْحَثُ الثَّالثُ: البَعْثَاتُ الدّرَاسِيَّةُ

إذا ما سحبنا مفهومَ البعثاتِ الدراسية من الحاضر إلى الماضي، لوجدنا أنَّ هناك جذورَ ضاربةً في عمق التاريخ لهذا الموضوع، لكن إذا فعلنا

عكس ذلك، فثمةَ فارق متعلق بالسياق القومي للجغرافية، بوصفها مقسمةً إلى أجزاء سياسية؛ أي أنَّ البعثات الدراسية في العصور القديمة، موضوع بديهي للفرد والمجتمع بوصفهم أُناسًا يحملون همَّ التعلم والبحث عنه، فلا حدود بين الأماكن التي تطأُها أقدامهم مرسومة من المحتل، ولا ثمة تمايز يعرقل المعاملة على أساس المكان، على عكس الحاضر، خاصة بعد القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ميلادي؛ حيثُ انتقل هذا الموضوع من طابعه الاعتيادي، إلى أُطر مؤسَّسَاتية تحكمها السُّلطة في هذه الدولة أو تلك بوصفها جزءًا من مهامها التنظيمية التي تقتضي ذلك. ومن هنا، صار البعدُ المكاني معيارًا في تحديد المعاملة والتوجه والبحث في سبيل تحصيل المعرفة، وهذا البعد ذاتُه استمد هذا التمايز بوصفه حقٌ قوميٌّ مفترضٌ للقاطنين في حيزه. تلتقي البعثات الدراسية لا بحد ذاتها بل بالجهةِ التي تقصدها، بالجامعة الأمريكية، من حيث الغايات، ففي النهاية كليهما يستهدفان الطالب في عمقه العقدي والاجتماعي من خلال أساليب ووسائل عدة، لكنَّ البعثات الدراسية في حد ذاتها تتميز عن موضوع المؤسسات التعليمية الأمريكية في الخارج، وهي وجود العينات المستهدَفة، أي المبعوثين في البيئة ذاتها المراد الترويج لها، أي أنها بذلك تقطع أشواطًا كبيرة في مسألة الترويج للحياة الأمريكيَّة بوصفه حُلمًا كما تتدعي بذلك شعاراتهم وأبجدياتهم. كما أنَّ هذا العملَ بحد ذاتِه يُسرّع من عملية التأثر والإعجاب بنمط هذه الرقعة الجغرافية، بوصفه متلقيًّا

مستمرًا لوقت كاف في التعايش ضمن هذه البيئة.

قد يتعذر الحصولُ على معلومات دقيقة في خصوص أعداد المبعوثين العراقيين إلى أمريكا، في الفترات الأولى من بدءِ النشاطات التعليمية التبشيريَّة الأمريكيَّة في العراق، أو التحديد الدقيق لبدء هذه البعثات. لكن عمومًا ومن خلال المصادر المتاحة، فإن البعثات الدراسية العراقية إلى الخارج بشكل عام قد بدأت من سنة ١٩٢٢م، وقد ضمت تسعة طلاب، واحد منهم ذهب إلى أمريكا: "وإذا رجعنا الى أول بعثة دراسية للدراسة خارج العراق، نرى أنها ضمّت تسعة طلاب، وأنَّ مدةَ الدراسة لم يتم تحديدها، وكان فيها طالبان للحصول على الشهادة العالية في الصحة من إنكلترا. هنالك طالب واحد لدراسة الزراعة في الولايات المتحدة الأمريكية، وطالب واحد لدراسة اللُّغة الإنجليزية في إنجلترا، وأربعة طلاب لدراسة العلوم في بيروت، وطالب واحد لدراسة التربية والتعليم"[١].

فيما يلاحظ أنَّه وبعد سنوات قليلة من الشُروع في إرسال البعثات الدراسية العراقية إلى الخارج، شهد العام ١٩٣٣م انطلاق أول بعثةٍ نسائية للدراسة في الخارج. هذه البعثة النسوية المتكونة من أربعة أفرادٍ كانت

١ - طارق حرب: أول بعثة للبنات البغداديات للدراسة خارج العراق، (٢٠١٧-٤-١٤)، تاريخ الاطلاع(٢٠٢٤-١٢-٢٠)، على الرابط الآتي:
https://newsabah.com/newspaper/118500?utm_source=chatgpt.com

وجهتها المؤسسات التعليمية الأمريكية في بيروت، وبحسب التقسيم الذي ذكره أحد الكُتّاب: «وتم ابتعاثهن للدراسة في لبنان ثلاثة منهن للدراسة في كلية (جونيور كولج بيروت)، وهن (مائدة الحيدري) و(زكية قصيرة) و(نزهت غنام)، وطالبة رابعة هي (قمر مظفر) للدراسةِ في مدرسة البنات الأمريكية ...»[١]. كانت بريطانيا وأمريكا الوجهتين الأكثر استقبالاً للبعثات الدراسية العراقية، وكان الميزانُ يميل أكثر إلى المملكة المتحدة قبل الحرب العالمية الثانية. ومن ثمَّ نرى بعد ذلك الفارقَ الكمي يتقلص تدريجيًا بين الاثنين في أعداد المبعوثين، وهذا ما شهدته سنوات قليلة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، وخروج القوى الاستعمارية التقليديَّة، فرنسا وبريطانيا، منهارتين تمامًا، لصالح كلٍّ من الاتحاد السوفيتي وأمريكا، قبل أن تشهدَ السنوات الثلاث الأخيرة، تفوّق الولايات المتحدة الأمريكية على بريطانيا، في عدد الطلاب العراقيين المبعوثين إليها؛ حيث شهدت الفترة ما بين عامي ١٩٥٦م-١٩٥٧م إرسال ٦٨ طالبًا للدراسة في أمريكا، مقابل٣٨ طالبًا إلى بريطانيا[٢].

---

١ - طارق حرب: أول بعثة للبنات البغداديات للدراسة خارج العراق، (٢٠١٧-٤-١٤)، تاريخ الاطلاع(٢٠٢٤-١٢-٢٠)، على الرابط الآتي:
https://newsabah.com/newspaper/118500?utm_source=chatgpt.com.

٢ - قحطان حميد كاظم وإبراهيم محمد سلمان: سياسية الولايات المتحدة الأمريكية اتجاه التعليم الوطني في العراق(١٩٢١-١٩٥٨)، ص١٨-١٩.

أَوَّلًا: بَرنَامَجُ تَبَادُلِ القَادةِ الشَبَابِ العِرَاقِيينَ»IYLEP"

بعيدًا عن المسارات الرسميَّة لقضايا البعثات الطلابية التي تُدار وفق التنسيق الحكومي للبلدان، نجد أنَّ ثمةَ تطور خطير انتهجته الإدارة الأمريكية، يتمثل في عبور هذه القنوات الرسمية، والقفز مباشرة إلى الفئات المستهدفَة، وهو يشابه الآليات التي أنتجتها وسائل التواصل الاجتماعي مع المخاطَب أو المتلقِي؛ إذ ألغت ما نستطيع تسميته بالفلاتر الحكومية التي كانت تتوسط مسبقًا قضيةَ الاتصال بين الإعلام الأجنبي والمتلقي المحلي، من خلال تصفية ما يخالف سياساتها أو ما تراه يعرّض هويَّة المجتمع للخطر من خلال مخالفة القيمِ والتقاليد المتبعة فيه.

وهذا عين ما نراه اليومَ أو ما تنتجه البرامج التي ترعاها وزارة الخارجية الأمريكية فيما يخص التعليم وغيره من القضايا، التي تندرج ضمن مفهوم الدبلوماسية الثقافية، أي استخدام الثقافة بشكلٍ عام فيما يتعلق بالأصول والأدوات والوسائل لتحقيق أهداف الدولة السياسية في الحيز الدولي لها. ومن البرامج المهمة والخطرة في هذا الصدد هو برنامج تبادل القادة الشباب العراقيين"IYLEP"، الذي يعرِّف نفسَه بالآتي: "يتيح برنامج تبادل القادة الشباب العراقيين "IYLEP" لطلاب المدارس الثانوية والجامعات العراقيين والأمريكيين، بالإضافة إلى الموجهين

البالغين، تطوير مهارات القيادة ووضع خطط عمل لتعزيز مستقبل العراق والولايات المتحدة"[١].

في سياق الكشف المعلن عن جهة التمويل والدعم، لا يتوانى هذا البرنامج وغيره من الكشف عن المصادر الرسميَّة التي تموله وتدعمه، ولا ندري أهي شفافية مفرطة من قِبلهم أم تأكيد على تغطرُسهم الاستعماري علينا. يؤكد «آيلب» على انخراطه المعلن في منظومة الهيمنة الأمريكية، كجزء فاعل في جانبها الثقافي عندما يكشف عن كونه مدعومًا ومدارًا من قبل وزارة الخارجية الأمريكية، «برنامج تبادل القادة الشباب العراقيين «IYLEP" لطلاب المدارس الثانوية والجامعات هو برنامج ترعاه وتدعمه السفارة الأمريكية في بغداد ووزارة الخارجية الأمريكية، مكتب الشؤون التعليمية والثقافية، قسم برامج الشباب، ويتم تنفيذه من قبل منظمة 'وورلد ليرنينغ' ..."[٢]، وتؤكد هذه الحقيقة أيضًا السفارة الأمريكية في بغداد، عبر موقعها الرسمي، حينما تقول: «لا توجد تكلفة للتقديم على برنامج تبادل القيادات الشابة العراقية. تمول وزارة الخارجية الأمريكية بالكامل الدراسة الأكاديمية للطلاب والسفر

---

١ - الواجهة الرئيسية للموقع الرسمي لبرنامج تبادل القادة الشباب العراقيين IYLEP، تاريخ الاطلاع(٢٠٢٤-١٢-٢٣)، على الرابط الآتي: https://www.iylep.org/

٢ - الموقع الرسمي لآيلب، على الرابط الآتي:
(https://www.iylep.org/about/) (https://www.iylep.org/about/)

والتأمين الصحي والإسكان، وتوفير بدل معيشة متواضع أثناء وجودهم في الولايات المتحدة»[١].

وعن الأعداد التي تمَّ الوصول إليها في هذا البرنامج، فتقدّر بأكثر من ثلاثة آلاف تقريبًا بدءًا من عام ٢٠٠٧م، تاريخ انطلاق البرنامج في العراق، ونلاحظ أنَّ التركيز على الفئة المستهدفة شمل تحديد الجانب العمري أيضا، وهنا خصص أو اشترط برنامج «آيلب» الفئةِ العمريَّةَ من ١٥ سنة إلى ١٧ سنة، لاستقبال الراغبين بالانضمام إلى البرنامج. لم يكن تحديدُ السن شرطًا اعتباطيًا، بل هو شرطًا أساسيًا لعمل هذا البرنامج، فهذه الفئة الفتية تمثل مرحلة انتقالية نهائية بين الطفولة والبلوغ. هذا التوقيت الحرج في عملية الانتقال، يجعل هذه الأعمار أكثر عرضة للتأثر بنمط الغير وأساليبه، وهي تشق طريقها في تكوين هويتها الفردية شبه المستقلة عن الأسرة، ويؤكد ذلك أحد الباحثين بقوله: "... حيث يتم في هذه المرحلة التطبيع الاجتماعي الفعلي الذي يؤدي إلى تكون المعايير السلوكية، ويميل الطالب إلى الاتصال الشخصي ومشاركة الأقران في الأنشطة المختلفة...والاستقلال الاجتماعي، وبصفة خاصة داخل الأسرة، ومسايرة الجماعة والرغبة في تأكيد الذات، والبحث عن

١ - برنامج تبادل القيادات الشابة العراقية (IYLEP)، السفارة الأمريكية والقنصليات في العراق، على الرابط الآتي:
https://iq.usembassy.gov/ar/2022-iraqi-young-leaders-exchange-program-iylep/

القدوة والنموذج ...»[1].

إنَّ عمليةَ التطبيع الاجتماعي والرغبة في الانتماء التي تعتري هذه الفئة العمرية، هو محور اهتمام برنامج «آيلب»، فالفرد في هذا السن ورغبة منه في تأكيد الذات، والجموح الانفعالي والسلوكي في ردات الفعل والحساسية اتجاه الأشياء، تشير في بعض الأحيان إلى كونِها مظهرًا حسيًّا للاستقلال الذي تحاول فرضه هذه الفئةُ العمرية على أُسرِها. إنَّ البحث عن الاستقلال الذاتي، قد يفرض الرغبة الملحة في البحث عن النموذج بعيدًا عن العائلة. وعند هذه النقطة بالذات يعمل «آيلب» عبرَ الإيحاء إليهم من خلال الأنشطة المتعددة التي يعمل عليها البرنامج معهم، خلال سفرهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية، خاصةً وأنَّه يشمل تهيئة عوائل لاستضافة هؤلاء الشباب العراقيين، وكما يجيب صراحةً عن ذلك الموقع الرسمي لـ«آيلب»: «سيقيم لمدة أسبوعين مع عائلة أمريكية مضيفة ومع

---

١ - شيرين لبيب خورشيد: خصائص النمو في مرحلة المراهقة والبلوغ، (٢٠١٩-١٢-٢)، تاريخ الاطلاع (٢٠٢٤-١٢-٢٤)، على الرابط الآتي:
https://www.alukah.net/social/0137456//%D8%AE%D8%B5%D8%A7%D8%A6%D8%B5-%D8%A7%D984%%D986%%D985%%D988-%%D981%%D98%A-%D985%%D8%B1%D8%AD%D984%%D8%A9-%D8%A7%D984%%D985%%D8%B1%D8%A7%D987%%D982%%D8%A9-%D988%%D8%A7%D984%%D8%A8%D984%%D988%%D8%BA/#_ftn4

مشارك آخر في برنامج IYLEP"[١].

يضع «آيلب» ومن خلال برامجه المتعددة للطلاب العراقيين في أمريكا أمام المراهقين، عملية نَمَذجَة متكاملة الأوصاف من خلال استعراض نمط الحياة الأمريكية بشكل عام، مما يُلبي طموح هذه الفئة في الاستقلال وتكوين الهويَّة الذاتية بعيدًا عن العائلة. ومن جانب يدخلهم في معايشة لمدة أسبوعين مع عوائل أمريكية، في سبيل غرس نمط الحياة الأمريكية من زاوية المنزل والأسرة الأمريكيين. إنَّ عملية استضافة هؤلاء المراهقين داخل هذه العوائل الأمريكية، والغوص العميق واليومي لمدة أسبوعين داخلها، خاصةً أنَّه سيتم التعمد في إظهار صورة الاستقلال الذي تتمتع به أفراد هذه العوائل لتفككهم الأُسري، كذلك صداقة الأبناء والآباء، وانعدام الاحترام بينهم وهكذا، كل هذه الرسائل والصور التي ستمس مُخيلة المراهقين ستؤدي دورها في عملية الاقتداء واتخاذ النموذج، خاصة إنَّنا ذكرنا أنَّ نمطَ المعيشة الأمريكية سيُعرض من خلال عدة زوايا، كي يتم

---

١ - تاريخ الاطلاع (٢٠٢٤-١٢-٢٤)، على الرابط الآتي:
https://www.alukah.net/social/0137456//%D8%AE%D8%B5%D8%A7%D8%A6%D8%B5-%D8%A7%D984% %D986% %D985% %D988-%%D981% %D98%A-%D985% %D8%B1%D8%AD%D984% %D8%A9-%D8%A7%D984%%D985%%D8%B1%D8%A7%D987%%D982%%D8%A9-%D988%%D8%A7%D984%%D8%A8%D984%%D988%%D8%BA/#_ftn4

غرسه بالشكل الأمثل، أو على أقل تقدير تهيئة الأرضية المناسبة لبرامج مستقبلية أكثر فعالية.

إنَّ الطبيعة العمرية للفئة التي يستهدفها برنامج «آيلب»، لها خصوصية أُخرى يجعلها أكثر اتساقًا مع الغاية المتوخاة منه، ففي هذه المرحلة بالذات يكتمل الكشف الفعلي للجسد بما له من احتياجات وما يعتريه من رغبات وخيالات، كما في المسألة الجنسية بشكل خاص. لذلك سيبدو المراهق هنا في الغالب ونتيجة عدم المعرفة الدينيَّة وتربية النفس، أكثر رغبة وميلاً للنمط المعيشي الذي يُلبي رغباته واحتياجاته، خاصة أنَّ الحياةَ الأمريكيَّة بما فيها من انحلال، وعدم وجود ضوابط رادعة في التعرّي و...، تمثل بيئة خصبة لتحقيق هذه الأحلام المسمومة.

وفي سياقٍ آخر متصل في الأهداف المرسومة من قبل "آيلب" وتلبيها الخصوصية الأنثربولوجية لهذا السن؛ حيث تبدأ في هذه المرحلة العمرية، عملية اتخاذ القرارات والبدء برسم المسارات المؤثر في المستقبل. فالنضج العقلي مع غض النظر عن الوعي والمعرفة، قد وصل إلى نقطة معقولة، تشكل دافعًا إلى جانب الأسباب الأُخرى -التي ذكرناها سابقًا أي الرغبة بالاستقلال وغيرها- في اتخاذ القرارات المهمة: "... وتشمل التصرفات المتعلقة بالبحث عن السعادة وردود الأفعال العاطفية وتنظيم النوم، بالإضافة إلى اتخاذ القرارات والتنظيم

والتخطيط للمستقبل"[١].

إنَّ رسمَ المستقبل والتخطيط له أو على أقل تقدير البدء بالتفكير فيه، والذي يبدأ من هذه المرحلة العمرية بالنسبة لهؤلاء الشباب، متعلقٌ ومرتبط بشكل أو آخر بالهيمنة، من خلال المحفزات والمؤثرات التي تسببت بها الأدوات الأمريكية سواء هذا البرنامج أو غيره من الأساليب المتبعة، في الترويج لنمط الحياة الأمريكية، أو غرس الرؤى الغربية بشكل عام في تفكير ونفسية هذه الفئات المستهدفة، مما يجعل رسم المستقبل أو التخطيط له والتفكير فيه، يمر من خلال هذه المسارات التي رسمتها هذه المحفزات أو المؤثرات، مما يُفضي بالنتيجة إلى اعتقادٍ بأنَّ هذه المعادلة ككل منبثقة من لدن التفكير المستقل لهم، دون الشعور بوجود تدخل وتداخل مع مجمل ما تعرضوا له، أي إخضاع نفسي يولد استقلالية موهومة، تحقق في النهاية الهيمنة بشكلها العام من خلال المسار الثقافي هذا.

١-المراهقة|Adolescence،الطبي،(٢٠٢٣-١-٢٩)،تاريخ الاطلاع(٢٠٢٤-١٢-٢٤)، على الرابط الآتي:

https://altibbi.com/%D985%%D8%B5%D8%B7%D984%%D8%AD%D8%A7%D8%AA-%D8%B7%D8%A8%D98%A%D8%A9/%D8%A7%D984%%D8%B5%D8%AD%D8%A9-%D8%A7%D984%%D8%AC%D986%%D8%B3%D98%A%D8%A9/%D985%%D8%B1%D8%A7%D987%%D982%%D8%A9

كما يُلاحَظ أنَّ برنامج "آيلب" يعمل وفق عدة اتجاهات في سبيل تحقيق وفرض الهيمنة الثقافية الأمريكية، ويمكن إجمال هذه الاتجاهات:

المسارُ النخبويُّ: يستهدف برنامج آيلب ومن خلال قراءة الشروط المعلن عنها في المتقدمين، بعض السمات المعينة مثل القيادة وغيرها من المشاركات في النشاطات المدنية.

صقلُ هؤلاء للمستقبل: يُقصد بالقادة هنا في مجال التقديم والاختيار لهذا البرنامج، هو قضية التأثير الذي يمتلكه هذا الناشئ في محيطه سواء الأسري أو في المدرسة الثانوية، أو الطالب الجامعي. يتم العمل على هؤلاء خصيصًا من خلال تنمية بعض المهارات المعينة، والتي تعضد من ميزة التأثير التي يمتلكوها.

استمرارُ التواصلِ: من أهم الشروط التي يضعها برنامج "آيلب" في المتقدم هو أخذ الموافقة منه على مواصلةِ مشاركته بالنشاطات التي يقيمها البرنامج، حتى مع انتهاء زيارته الولايات المتحدة الأمريكية، والعودة إلى العراق. يؤدي هذا الأمر إلى إدامة زخم التَّأثير في هؤلاء والذين بدورهم يوثرون على بقيةِ أفراد المجتمع من خلال الفعاليات العديدة التي يقومون بها، أو من خلال اقتحام الفعاليات العامة، والعمل من خلال مهاراتهم التي صقلها البرنامج، على التأثير في الحاضرين.

الآخرون: المقصود هنا أولئك الذين لا يمتلكون الصفاتِ القياديَّةَ، هؤلاء أيضًا يتم العمل عليهم من خلال الفعاليات الأخرى للبرنامج، ومن خلال اصطحابهم في جولة الولايات المتحدة الأمريكية، ومن ثمَّ جعلهم أكثر تعلقًا بنمط الحياة

الأمريكية، مما يؤدي إلى أن يكونوا مرايا تعكس هذه الحياة في بيئتهم ومجتمعاتهم.

تؤدي هذه الثنائية؛ أي النخبوية أو القادة، والآخرين أو العوام، إلى تحقيق نتائج ذي فعالية في سبيل الوصول إلى الأهداف المرسومة من قبل البرنامج.

يمكننا ملاحظةِ نتائج هذا البرنامج على أرض الواقع من خلال فعاليات النشاط المدني المقام من قبل منظمات المجتمع المدني، ومن خلال الاحتجاجات التي شهدتها البلاد، أو تلك التي ستشهدها مستقبًلا؛ حيث يظهر هؤلاء -أي مرتادي هذا البرنامج- كأشخاص وأسماء بارزة ذات صوت إعلامي مسموع في خضم التظاهرات أو أي فعالية مشابهة، وبما في ذلك الوقفات الاحتجاجية.

ثَانِيًا: بَرنَامَجُ «فولبرايت»

وهو من أبرز البرامج العامة التي تتولى إدارتها الحكومة الأمريكية عن طريق وزارة الخارجية، في الميدان الأكاديمي والبعثات الدراسية، ويعود تاريخ تأسيسه للعام ١٩٤٦م من قبل السيناتور الأمريكي (وليام فولبرايت - William Fulbright)[1]، حينما اقترح في القانون الذي قدَّمه

١ - سيناتور أمريكي ديمقراطي حكم ولاية اركانساس من عام ١٩٤٥ حتى عام ١٩٧٥ ولد في التاسع من أبريل عام ١٩٠٥. أهم إنجازاته أنه أسس برنامج فولبرايت للمنح التعليمية والتبادل الطلابي عام ١٩٤٦ عن طريق اقتراحه كمشروع يحمل اسمه في الكونغرس الأمريكي وبالفعل تم الموافقة عليه. ويكيبديا

إلى الكونغرس، الاستفادة من عائدات بيع المعدات العسكرية الزائدة بعد الحرب العالمية الثانية، في مجال التعليم والمِنح الدراسية والتبادل الثقافي العام. هذا البرنامج شأنُه شأن البرامج الأخرى كان ضمن سلسلة ممتدة من الأدوات التي تساهمُ في تلميع الصورة الأمريكية، بدءًا من نهاية الحرب العالمية الثانية ووصولاً إلى الآن. تقدّر عدد المنح التي يقدمها «فولبرايت» بحوالي ٨٠٠٠ منحة دراسية سنويًا في الوقت الحاضر، وعن أعداد الذي شاركوا فيه، فهم وصلوا إلى ما يناهز ٤٠٠ ألف؛ نظرًا لاستمرارية عمله طوال هذا السنوات «... وقد شارك في البرنامج منذ تأسيسه ٤٠٠ ألف طالب وطالبة من أكثر من ١٦٠ بلدًا. يدرس الحاصلون على منحة «فولبرايت» في الولايات المتحدة أو يحاضرون أو يجرون أبحاثًا متخصّصةً ...»[١].

وعن التأثيرِ الملموس لهذا البرنامج منذ بدايات تأسيسه أي حينما كان يضمُّ عددًا محدودًا من الدول، قال الرئيس الأمريكي في حينها (هاري

---

١ - ما هو برنامج فولبرايت؟ (٢٠٢١-٨-١٧)، تاريخ الاطلاع (٢٠٢٤-١٢-٢٦)، على الرابط الآتي:

https://archive-share.america.gov/ar/%D985%%D8%A7-%D987%%D988-%%D8%A8%D8%B1%D986%%D8%A7%D985%%D8%AC-%D981%%D98%8%D984%%D8%A8%D8%B1%D8%A7%D98%A%D8%AA%D89%F/index.html?utm_source=chatgpt.com

ترومان - Harry S. Truman)[١]، في رسالة بعثها إلى رئيس مجلس فولبرايت في العام ١٩٥١م، متحدثًا عن أهمية هذا البرنامج: «بات يساعدنا جميعًا على فَهم بعضنا البعض بشكل أفضل من أي وقت مضى، فضلاً عن قيامه بمكافحة أي اعوجاج يتعلق بالظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في البلدان الـ١٢ المشاركة في ذلك الوقت»[٢].

والمؤكد أنَّ المقصودَ بمكافحةِ الاعوجاج كان يتمثَّلُ بمحاربة الأفكار التي تقف ضد سياسة الولاياتِ المتحدة الأمريكية، خاصةً أنَّ تلك الفترةَ قد شهدت تنافسًا وصراعًا محمومًا بين المعسكر الغربي الأمريكي والشرقي المتمثّل بالسوفييت والدول الاشتراكية. أمَّا عن أبرزِ النتائج التي حققها هذا البرنامج، فتمثلت بأنَّ كثيراً من المتخرجين منه أو الذين تخرجوا عن طريقه، قد تمكَّنوا من تسلُّم مناصب مرموقة في بلادهم، فبعض الإحصائيات تشير إلى «أنَّ ٤٠ رئيس دولة أو حكومة حاليين أو

---

١ - الرئيس الثالث والثلاثون للولايات المتحدة الأمريكية، تولى المنصب من ١٢ أبريل ١٩٤٥ حتى ٢٠ يناير ١٩٥٣.

٢ - ما هو برنامج فولبرايت؟ (٢٠٢١-٨-١٧)، تاريخ الاطلاع (٢٠٢٤-١٢-٢٦)، على الرابط الآتي:

https://archive-share.america.gov/ar/%D985% %D8%A7-%D987%%D988-%%D8%A8%D8%B1%D986%%D8%A7%D985%%D8%AC-%D981%%D988%%D984%%D8%A8%D8%B1%D8%A7%D98%A%D8%AA%D89%F/index.html?utm_source=chatgpt.com.

سابقين»[١] هم من خريجي هذا البرنامج، ولعل أبرزهم هو (خوان مانويل سانتوس)، الرئيس السابق لكولومبيا الحائز على جائزة نوبل للسلام في العام ٢٠١٦م، وكذلك (ريشي سوناك - Rishi Sunak) رئيس الوزراء السابق لبريطانيا، (أشرف غني) الرئيس الأفغاني السابق وغيرهم كثير[٢]. كما حصل ٦٠ شخصًا من خريجي «فولبرايت» على جائزة نوبل. كل هذه الأمور تؤكد على الأهميَّةِ القُصوى التي يتمتع بها البرنامج وأثاره الفعلية من خلال تسلُّم خريجيه لكثير من المناصب الحكومية في بلدانهم، ممَّا عزَّز من المقدرةِ الأمريكيَّةِ، في تشكيلِ الكثير من التصوُّرات للشعوب، عبر بوابة هذه النخب السياسية والثقافية والتي شكلت نافذةً لمرور الهيمنة الأمريكية على مجتمعاتهم. كل ذلك يؤكد مرة أخرى على أهمية الفاعل

---

١ - ما هو برنامج فولبرايت؟ (٢٠٢١-٨-١٧)، تاريخ الاطلاع (٢٠٢٤-١٢-٢٦)، على الرابط الآتي:

https://archive-share.america.gov/ar/%D985%%D8%A7-%D987%%D988-%%D8%A8%D8%B1%D986%%D8%A7%D985%%D8%AC-%D981%%D988%%D984%%D8%A8%D8%B1%D8%A7%D98%A%D8%AA%D89%F/index.html?utm_source=chatgpt.com.

٢ - الموقع الرسمي لقسم الشؤون التعليمية والثقافية التابع لوزارة الخارجية الأمريكية، على الرابط الآتي:

https://eca.state.gov/fulbright/fulbright-alumni/notable-fulbrighters/heads-stategovernment?utm_source=chatgpt.com

الثقافي كأداة مؤسسية وشخوص في تعزيز مفهومِ الهيمنةِ وترسخيه لأجيال قادمةٍ ما لم تتخذ الخُطوات اللازمة للتصدي.

■ المبْحَثُ الرَّابِعُ: مُنَظَّمَاتُ المُجْتَمَعِ المَدَني

مفهوم المجتمع المدني أو منظماته، من المفاهيم الخادعة التي تحمل أبعادًا وهميةً في كثير من دلالاتها، وهي غالبًا ما تستند إلى ما يمكن أن نسميه الإرجاع التأريخي، أي البحث عن مساحةٍ مشتركةٍ مع حقبةٍ تاريخية معينة، ومحاولات إنشاء امتداد من الممكن أن ينسجَ أو يؤدي إلى ارتباطٍ وحدوي تُمسي فيه تلك الحقبةُ ماضيه الخاص، وهذا ما ينطبق على هذا المفهوم الذي بين يدينا حينما يتم ربط جذوره باليونان وكتابات أرسطو في السياسة. وهنا نتحدث عن المجتمع المدني في إطاره النظري، لا تمثلاته التطبيقية أي منظمات المجتمع المدني، التي لم تخرج من هذا السياق، بل تطور الأمر معها وتم إلصاقها في الميادين العملية لبعض التسميات والممارسات التي كانت تؤدى في الإسلام، حيثُ حاول البعضُ إرجاع هذه المنظمات وربطها بالتاريخ الإسلامي من بوابة بعض المؤسسات التي عرفتها المجتمعات الإسلامية، خاصةً نظام الأوقاف والحسبة، وكما يؤكد على ذلك أحد الكُتَّاب بقوله: «وقد لا يعرف الكثيرون أنَّ تاريخنا

الإسلامي قد شهد ممارسات ومؤسسات عديدةً يمكن أن تُصنف بأنَّها منظمات مجتمع مدني، من أبرزها وأشهرها 'نظام الأوقاف' الذي يُعد أكبر المؤسسات المدنية التي عرفها تاريخنا الإسلامي، ومنها كذلك 'نظام الحسبة' الذي كانت مهمته مراقبة الأسواق وفض النزاعات المهنية ...»[1].

وذات الفكرة التي استُخدمت في إرجاع مفهوم المجتمع المدني بشكلٍ عام وربطه في جذور يونانية، خاصةً في كتب (أرسطو) عن السياسة والمدينة وغيرها، جرى ذات الفعل في السياق الإسلامي عبر ربط هذا المفهوم أيضًا بالإطار الإسلامي من خلال آراء الفارابي حول صفات المدينة الفاضلة وغيرها من الأمثلة. دون الانتباه للفارق اللُّغوي في المفهوم بين الاستعمال الغربي له وبين الدلالات العربية التي يحملها، كما يوضح (محمد عابد الجابري) ذلك بقوله: «إذا نحن أردنا التدقيق في المدلول اللُّغوي لعبارة 'المجتمع المدني'، كما يمكن تحديد معناها في اللغة العربية، مقارنةً مع ما تتحدد به في اللغات الأوربية؛ وذلك أنَّ لفظ 'مجتمع' صيغة ترِدُ في اللُّغة العربية إمَّا اسم مكان أو اسم زمان أو مصدر ميمي ...، وبالتالي فهو لا يؤدي معنى اللفظ الأجنبي الذي تترجمه به (société - society) (...»[2]

---

١ - أحمد محمد كنعان، منظمات المجتمع المدني في الإسلام، (٢٠١٥_٦-٥)، تاريخ الاطلاع(٢٠٢٤-١٢-٢٨)، على الرابط الآتي:

https://www.alyaum.com/article

٢ - سرمد زكي الجادر: التوظيف الأمريكي لمنظمات المجتمع المدني، ص٩٣.

كذلك الاستخدام الزمني لها، المنقطع بلا شك عن الوقت الحاضر؛ بسبب الغايات المخبأة خلف الاستخدام الحالي له، كذلك الأمر متعلقٌ بأنَّ هذا المفهومَ سواء تعلق الأمر بالسياق النظري المتعلق بمصطلح المجتمع المدني، أو المسار التطبيقي له والذي تقف المنظمات غير الحكومية في مقدمته، يشير كونه أدوات في تثبيت دعائم الهيمنة الغربية وعلى وجه الخصوص الأمريكية منها، في أسلوبها الثقافي، من خلال اللعب على وتر الدلالات الشعاراتية له.

وهذا الفكرة ذاتها تستخدم في مجالات أخرى، ليست موضوعنا. عمومًا يدور مفهوم المجتمع المدني بشكل عام حول المساحة الفاصلة بين السلطة بوصفها منظومة حكم، والمجتمع كأفراد محكومين، أي بالإمكان القول أنَّها حالة وسطى تنبثق من المجتمع دون أن تكون طرفًا معه، وفي السياق ذاته تُعرف من قبل أحد الباحثين بأنها: «... وتشير إلى منظومة الأُطر الاجتماعية الطوعيَّة التي تتوسط بين الدولة من ناحية والمكونات الأساسية للمجتمع من الناحية الأخرى 'الأفراد الأسرة، الشركات'»[1].

فيما عَرَّفَت الأُمَمُ المتحدة منظماتِ المجتمع المدني بأنَّها: «منظمة المجتمع المدني أو المنظمات غير الحكومية هي أي مجموعة مواطنين تطوعية غير

١ - حسام شحادة: المجتمع المدني، ص١٤.

ربحية يتم تنظيمها على المستوى المحلي أو الوطني أو الدولي»[١].

ودون الغوص أكثر في اختلاف التعريفات أو اتفاقها، وهذا ليس موضوعَ هذا البحث، لكن بالمُجمل فإنَّ منظمات المجتمع المدني الفاعلة ترتبط بشكل أو بآخر بالسياسةِ الأمريكيَّة، بل في أحد أهم مفاصلها وهي وزارة الخارجية، وهي عملية هرميَّة، يقف على رأسها «نيد – NED" أو ما يُعرف بصندوق دعم الديمقراطية الأمريكية، الذي أُسس من قبل الكونغرس الأمريكي عام ١٩٨٣م، وبشكل علني يعترف هذا الصندوق بتقديمه المنح لبقية المنظمات غير الحكومية في كثير من بلدان العالم؛ حيثُ جاء في موقعه الرسمي، ما يأتي: "الصُندوق الوطني للديمقراطية 'NED' هو مؤسسة خاصة غير ربحية مكرسة لتحقيق النمو وتعزيز المؤسسات الديمقراطية في جميع أنحاء العالم. وفي كل عام، يُقدم الصندوق الوطني للديمقراطية أكثر من ١٠٠٠ منحة لدعم مشاريع الجماعات غير الحكومية في الخارج والتي تعمل من أجل الأهداف الديمقراطية في أكثر من ٩٠ بلدًا"[٢]. لكنَّنا نرى أنَّ جذورَ العملِ الذي قام

---

١ - الأمم المتحدة والمجتمع المدني، موقع الأمم المتحدة، لات، تاريخ الاطلاع (٢٠٢٤-١٢-٢٨)، على الرابط الآتي:

https://www.un.org/ar/get-involved/un-and-civil-society

٢ - الموقع الرسمي للصندوق الوطني لدعم الديمقراطية الأمريكية، لات، تاريخ الاطلاع (٢٠٢٤-١٢-٢٩)، على الرابط الآتي: https://www.ned.org/about

به هذا الصندوق وهو ما نراه التمهيدَ الأمثلَ له، هو ما جرى في أعقاب الحرب العالمية الثانية حينما تم تمويل عدة مشاريع ومنظمات من أجل استخدامِهم في الصراع مع الاتحاد السوفييتي، قبل أن يتم إيقاف هذا الأمر أواخر الستينيات، لكن هذا الصندوق وبعد مصادقة الكونغرس عليه، قد مُنح شرعية العمل العلني ضمن الفضاء الأمريكي المؤسساتي، مما منحه أبعادًا إضافيةً ومزايا أكثر أتاحت له العملَ بنطاقٍ أوسع. من ثم يأتي في هذه الهرميَّة التي ذكرناها سالفًا، منظمات المجتمع المدني، أو ما يُطلق عليه أيضًا بالمنظمات غير الحكومية. قبل الغوص أكثر، علينا التوضيح بأنَّ المقصودَ بالمُنظمات ليست الفكرة بحد ذاتِها بل الجانب العملي الواضح منها والمرتبط بسياسات البيت الأبيض، مما يعني وتلقائيًّا يجب أن ينسحبَ الفَهم أنَّ الحديثَ بالصيغة هذه ها هنا لا تعني الإطلاق والتعميم، لذلك وجب التنويه.

بعيدًا عن الأهداف السياسية لهذه المنظمات والتي يمكن إجمالها بقضية الضغط الذي تمارسه هذه المنظمات للدفع بالسياسات المحلية في بلدانها كي تتوافق مع السياسات الأمريكية، في حين الذي يهمنا في إطار الهيمنة الثقافية التي تمارسها هذه المنظمات بوصفها أدوات ذات طابع محلي، بغض النظر عن ارتباطاتها الخارجية، هو محاولاتها المستمرة لتطويع المجتمع وجره إلى القبول بالرؤى الأمريكية بشكل عام، وهنا بالأخص الجانب المتعلق بالثقافة، كما يؤكد ذلك أحد الباحثين الغربيين

في إطار حديثه عن الدور الذي تلعبه المنظمات حينما تستخدم كأدوات اختراق من قبل داعميها؛ إذ قال: «... فتح قنوات تواصل لإقناع الجماهير بالرؤى الأمريكية السياسية والاقتصادية والثقافية»[١].

في العراق وتحديدًا ما بعد الاحتلال الأمريكي، بدأت منظمات المجتمع المدني بالتنامي، ولم تمضِ سوى سنوات قليلة بعد عام ٢٠٠٣م، حتى شهدت هذه المنظمات طفرةً كميَّةً، كان التوازن المعقولُ بالنسبة للإدارة الأمريكيَّة، هو محاولة إيجاد التوليفة المناسبة التي تسمحُ بأخذ هذه المنظمات مسارها المرسوم، إلى جانب الوجود العسكري الأمريكي على الأرض، لذلك حرصت الإدارة الأمريكيَّةُ على هذه المسألة، وفي سبيل إيجاد تحقيق هذه الصِيغ المناسبة، دفعت أمريكا سُلطة الائتلاف المؤقتة لإصدار الأمر رقم (٤٥) لسنة ٢٠٠٣م، والخاص بالإطار القانوني لهذه المنظمات قبل أن يطرأ تعديلاً آخر من ذات الجهة في عام ٢٠٠٤م[٢]. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل أنشأت دائرة المنظمات غير الحكومية وهي تابعة إلى الأمانة العامة لمجلس الوزراء، مما يعني أنَّ هذه المنظمات أصبحت جزءًا تنظيميًّا في هيكلية مؤسسات الدولة، من خلال استحداث

---

١ - سرمد زكي الجادر: التوظيف الأمريكي لمنظمات المجتمع المدني، ص٩٧.

٢ - تعديل الأمر رقم ٤٥ المتعلق بتسجيل المنظمات غير الحكومية،(٢٠١٠-٨-١٨)، تاريخ الاطلاع (٢٠٢٤-١٢-٢٩)، على الرابط الآتي:

https://wiki.dorar-aliraq.net/iraqilaws/law/20623.html

هذه الدائرة التي عنيت بها وبالمجتمع المدني بشكل عام كجهة حكومية، ارتبطت في البدء وحينما كانت مجرد مكتب بوزارة التخطيط في عام ٢٠٠٤م، قبل أن تنتقل إلى وزارة الدولة لشؤون المجتمع المدني في العام ٢٠٠٥، لكنها في هذه المرحلة كانت عمليًّا تابعةً للأمانة العامة لمجلس الوزراء بسبب عدم وجود تخصيصات مالية لهذه الحقيبة الوزارية «وبالنظر إلى أن هذه الوزارة لا تمتلك موازنة مالية خاصة بها كونها وزارة دون حقيبة، ارتبط مكتب مساعدة المنظمات غير الحكومية ماليًّا وإداريًّا بالأمانة العامة لمجلس الوزراء تحت إشراف وزير الدولة لشؤون المجتمع المدني، واستمر الحال حتى عام ٢٠٠٨م ...»[١]، وقد انتقلت بشكل رسمي وتحولت إلى دائرة في عام ٢٠٠٨م.

لكن الُملاَحَظ، هو استحداث وزارة تعنى بهذه الشؤون بغض النظر عن مدى أهميتها وتخصيصاتها المالية، لكنها بكل تأكيد تؤشر إلى وجود الدفع بهذا الاتجاه من قبل سلطات للاحتلال، والتي عُدت من أبرز منجزات في تلك الفترة لهذه المنظمات بحسب كلام أحد الباحثين: «استحداث وزارة باسم وزارة الدولة لشؤون المجتمع المدني، وذلك ضمن التشكيلة الحكومية الأولى بعد انتقال السيادة من سلطة الائتلاف

١ - دائرة المنظمات غير الحكومية في الأمانة العامة لمجلس الوزراء، لات، تاريخ الاطلاع (٢٠٢٤-١٢-٢٩)، على الرابط الآتي:
https://www.ngoao.gov.iq/PageViewer.aspx?id=3

المؤقتة الى العراقيين في الثلاثين من شهر حزيران ٢٠٠٤م»[١].

إذًا، رأينا كيف مهّدت أمريكا عملَ هذه المنظمات من خلال التهيئة المسبقة لها وفق فرض أوامر من قبل سلطة الائتلاف المؤقت وقوانين جرى فرض تشريعها بعد تسليم السلطة إلى العراقيين، من أجل إفساح أكبر مساحة ممكنة لعمل هذه المنظمات بعد قضيَّةِ الانسحاب خاصة؛ إذ إنَّنا نرى أنَّ عمل هذه الجهات كان أكثر فعالية بعد عام ٢٠١١م، ولا يعني أنها لم تكن تعمل قبل هذا التاريخ، لكنَّ الانسحابَ العسكري، وفر لها الاشتغال في البيئة العراقية بعيدًا عن مشاكل الرفض الشعبي للوجود المسلح لأمريكا. نلاحظ أنَّ عملَ هذه المنظمات دون تحديد معين لها، عملت منذ البدء وفق آلية صناعة جيل شبابي محسوب على الوسط الثقافي وحتى الأوساط الأُخرى، وفي الوقت نفسه قادر على توجيه المزاج الشعبي اتجاه القضايا التي تخدم توجيهات هذه المنظمات، كما فعل معهد «صحافة الحرب والسلام» في البدء، الذي يُعتبر من أوائل المنظمات التي دخلت إلى العراق بعد عام ٢٠٠٣م، وهو منظمة دولية تتلقى تمويلاتها من أكثر من جهة غربية على رأسها الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا، ساهمت في تخريج مجاميع كان لها أثر فاعل في المجتمع خاصة أثناء الأزمات؛ إذ كان هؤلاء -وهم

---

١ - سراب جبار خورشيد: منظمات المجتمع المدني في العراق وأثرها في التحولات الديمقراطية، ص١٥٢.

الآن أغلبهم يتصدرون المشهد الإعلامي العراقي، سواء أكانوا معارضين للنظام السياسي القائم أم بعض المحسوبين على مؤيديه- يمارسون ضغطًا في اتجاهين، تمثَّل الاتجاه الأول بالعمل على تخريج الموضوع الموجه بطرق مختلفة وأكثر قبولاً عند الشباب والمجتمع العراقي بشكل عام، ومن ثمَّ يُسهم هذا الأمر في التحكم غير المباشر بآراء الناس اتجاه هذه القضية أو غيرها، ومن ثمّ في الاتجاه الثاني يمتد هذا العمل تلقائيًّا كي يكون ضاغطًا على الحكومة أو مؤسسات الدولة بشكل عام؛ باعتبار أنَّ الأمرَ يُمثل رأيًا عامًّا شعبيًّا لابد من الامتثال له. وهذا مثال واحد من عدة أمثلة جرى العمل عليها. أما كيفيَّة تمَكُن هؤلاء من إحداث هذا التأثير والتلاعب في المزاج العام العراقي والقدرة على تشكيل تصوراته في بعض الأحيان بالطريقة التي يريدوها من حيث القبول والرفض لبعض القضايا؟

المعهد نفسه يجيب عن ذاك من خلال توضيح الآليات التي يعمل وفقها «... لتمكين الناس من التعبير في الخطوط الأمامية في الصراعات والمراحل الانتقالية لمساعدتهم على تحقيق التغيير. ويعمل المعهد على بناء المهارات والقدرات والشبكات الخاصة بالمواطنين ومجتمعاتهم بحيثُ تُصبح أصواتهم قادرة على إحداث الفرق ...»[1].

---

١ - معهد صحافة الحرب والسلام، لات، تاريخ الاطلاع (٢٠٢٤-١٢-٣٠) على الرابط الآتي:

https://advocacyassembly.org/ar/partners/instituteforwarandpeacereporting

ما ذكرناه سالفًا يدخل في المسارات الممهدة إلى الهيمنة الثقافية، فكون هؤلاء لهم القدرة على تكوين التصوُرات والانطباعات لدى الناس حول مواضيعَ معينةٍ، فهم بالتأكيد يمُهدون إلى عكس الرؤية والرواية الأمريكية حولها، خصوصًا وأنَّ هؤلاء لهم حضور فاعل وقوي في مواقع التواصل الاجتماعي، من خلال الدعم والتمويل المستمر لصفحاتهم في هذه البرامج. أثناء عمليات تحرير العراق من دنس تنظيم داعش، ركزت بعض هذه المنظمات والمرتبطة كليًا بالتوجه الأمريكي على تناسي الإجرام والمجازر الذي قام بها هذا التنظيم، والتركيز فقط على بعض التصرفات الفردية للقوات العراقية، وتحويلها إلى عمليات ابتزازٍ إعلامي كبيرة في سبيل عدة غايات متلبسة بشعار حقوق الإنسان. وفي إطار كل هذه الأعمال التي كانت تقوم بها عملت هذه المنظمات على ضرب المباني الأخلاقية للمجتمع خصوصًا في البيئات الفقيرة وذات صبغة مذهبية معينة بالتحديد. ولو بحثنا في هذا الأمر بالذات لوجدناه مرتبطًا بكون هذه البيئات تشكل الحواضن الرئيسة للحركات الإسلامية والمناطق التي ينطلق منها المجاهدون، وفي العراق شكلت تجربة الحشد الشعبي مثالا حيويًّا على هذه المعادلة، فضرب هذه المناطق في هويتها الدينية والاجتماعية، ينسجم مع تحقيق الغايات الأمريكية في تقويض أي قُوى من الممكن أن تنشأ مستقبلاً وتشكل خطرًا على مصالحها في العراق والمنطقة. لذلك -ومثلما ذكرنا مسبقًا- فإنَّ الهيمنة هي منظومة عمل متكاملة، تتكامل فيها

جميع الأبعاد، لذلك نرى مثلاً في هذا المثال، انسجام البعد الثقافي في ضرب هذه البيئات مع الأبعاد السياسية والاجتماعية والعسكريَّة برمتها، من خلال ضرب هذه الأهداف يؤدي تلقائيًا إلى تحقيق الأُخريات، فمثلاً يؤدي العمل الذي تقوم به هذه المنظمات في سبيل التدجين الثقافي والعمل على العنصر النسوي والشبابي بشكل عام، من خلال تحفيز وتشجيع التمرد أو الشذوذ الجنسي في كثير من الأحيان، يحقق البعد الاجتماعي والثقافي معًا في الهيمنة، كذلك البعد السياسي من خلال هذه الممارسات تؤدي بطريقة أو بأخرى إلى إضعاف ارتباط هذه البيئات بالدين كأشخاص ومؤسسات. كذلك تجنبها للحركات والمؤسسات الإسلامية سواء أكانت أحزابًا سياسيَّة أم ثقافية بوصفها الحاضنة الجماهيرية لهم. في مقابل ذلك تحقق هذه المعادلة البعد العسكري كونها الحواضن الأكثر إنتاجية للقوات الأمنية بشكل عام والحشد الشعبي على وجه الخصوص. تمهد كل هذه النتائج إلى ضرر مستقبلي للدولة والمجتمع على حد سواء، مقابل نصر إستراتيجي، متمثل بأنَّ بقاء الأوضاع مثلما كانت ستؤدي إلى أن تكون عوامل إضعاف في تلبية الناس والمجتمع المسلم لمرجعيته الدينيَّة، في فتاويها وإرشادتها الوطنية والدينية، في خضم مجابهة قوى الاستعمار العالمي.

كما قامت منظمات المجتمع المدني في البدء ولو بشكل غير معلن في دعم وحماية الشاذِّين جنسيًّا، وتوفير أماكن إيواء لهم، واستخدمت

في سبيل ذلك الدعايات الغربية والتي ارتكزت على كون الأمر طبيعي ويجب التعايش معه، ومن ثم مؤخرًا الترويج لـ«الجندر»، والذي لا يوجد أي تعريف محدد له، ويتضح من تتبع هذه القضية أنَّ الأمرَ مُتعمَّد بغية إلقاء الضبابية على المصطلح، ولكي يقتحم الثقافات الأخرى دون أن يصطدم بالثوابت الدينية والاجتماعية للمجتمعات، ويحول دون إحراج الحكومات مع مجتمعاتها عند عملية فرضه التدريجي دوليًّا والذي تم فعلاً من خلال المعاهدات التي عُقدت في سبيل ذلك، مثل (معاهدة سيداو، مؤتمر نيروبي، وثيقة القاهرة)[1]. وقد ساهمت المنظمات في الترويج لهذا المصطلح من خلال الفاعليات التي مارستها وما زالت، سواء من خلال

---

١ - سيداو: هي معاهدة دولية اعتمدتها الجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٧٩، وتصفها على أنها وثيقة الحقوق الدولية للنساء، صُدّقت المعاهدة في ٣ سبتمبر من عام ١٩٨١ ووقعت عليها أكثر من ١٨٩ دولة من بينهم أكثر من ٥٠ دولة وافقت مع بعض التحفظات والاعتراضات.

مؤتمر نيروبي: وهو المؤتمر العالمي الثالث المعني بوضع المرأة، عُقد في كينيا للفترة ١٥_٢٦ يوليو من سنة ١٩٨٥، وقد جاء في سبيل استعراض وتقييم المنجزات التي عقدتها الأمم المتحدة للمرأة بين عامي(١٩٧٦- ١٩٨٥)، وقد حضر المؤتمر ممثلو أكثر من ١٤٠ دولة، وقد اعتمدت وثيقة نهائية في ختام هذا المؤتمر سميت بـ(استراتيجيات نيروبي المرتقبة للنهوض بالمرأة).

وثيقة القاهرة: وهي الوثيقة التي نتجت عن انعقاد مؤتمر القاهرة للسكان، سنة ١٩٩٤، وقد شهد هذا المؤتمر الدخول الفعلي لهذا المفهوم في المجتمعات العربية والإسلامية.

الندوات أو ورش العمل التي تقوم بها بالمحافظات أو العاصمة بغداد. والملاحظ أنها تروج لكون «الجندر» يعني التقسيم البيولوجي أي ذكر أو أنثى, وليس النوع الاجتماعي, بهدف تفادي أي ردة فعل، وكذلك تقوم بالترويج للجندر عبر ورش العمل والندوات بالعناوين الأخرى المرتبطة بالجندر كتمكين المرأة وغيرها. كما ويلاحظ مدى التنسيق العالي بين هذه المنظمات والجهود الأممية الغربية في فرض هذا المفهوم، وهذا يؤدي إلى تعطيل التعاليم الدينيَّةِ والأخلاقيَّة داخل البلدان المسلمة ومنها العراق، لأنَّها تتعارض مع هذه الثوابت في قبال الالتزامات التي تكبلت بها هذه البلدان من خلال المواثيق الأممية التي وقعت عليها، بالتزامن مع الضغوط التي تمارسها منظمات المجتمع المدني سواء من خلال الضغط على الفاعل السياسي، أو عمليات التدجين المستمرة التي تقوم بها اتجاه المجتمع من خلال الندوات والورش، من أجل حثِّهم على قبول الأمر، والذي أدى إلى توسيع دائرة انتشار الشذوذ الجنسي بين الشباب، بل وتقنينه بواسطة «الجندر» عبر وضع قوانين وتعليمات من خلاله هذا المفهوم تؤدي إلى هذه النتيجة. وهذا ما هو ملاحظ ببنود معاهدة سيداو.

وفي الآونة الأخيرة، جندت هذه المنظمات إمكانياتها ضد مقترحِ تعديل قانون الأحوال الشخصية، وعمدت في ذلك لاتخاذ الأساليب الدعائية المضللة، من قبيل تصويره بأنَّه سيكون تهديدًا مرعبًا اتجاه النساء والأطفال، وسيكون ترسيخًا للطائفية على حد تعبير إحدى المذكرات التي رفعتها هذه المنظمات،

والتي جاء فيها: «إنَّ التعديل المقترح يضرب في الصميم مبدأ المساواة بين المواطنين أمام القانون الذي نصت عليه المادة ١٤ من الدستور، بتكريسه التمييز الطائفي، مهدداً الاستقرار الأُسري ووحدة النسيج والتعايش المجتمعي القائم على الزيجات المختلطة ما بين المذاهب والقوميات والأعراق. كما يطلق التعديل الزواج والطلاق خارج المحكمة وزواج الطفلات ...»[١]، وهذه الخطابات والشعارات المزيفة ذاتها التي استُخدمت في وقت سابق، وعلى المقترح ذاته حينما قدمت قبل سنوات، حينما تم اقتراح التعديل في تلك الفترة أيضًا، ردت هذه المنظمات بالآتي: «وانسجامًا مع المبادئ الأساسية المثبتة في ديباجة الدستور في مناهضة الطائفية والعنصرية والتمييز والإقصاء، والسعي لتعزيز الوحدة الوطنية واحترام قواعد القانون وتحقيق العدل والمساواة، فإنَّ المجتمع المدني ممثلاً بالمنظمات والشخصيات الموقعة على هذه المذكرة تدعو رئاسة مجلس النواب ولجانه وأعضاءه إلى السحب الفوري لمقترح التعديل المذكور...»[٢]. إنَّ مجرد الرد على مثل الادعاءات يعطي لها شرعيةً

---

١ - منظمات المجتمع المدني ترفض تعديل قانون الأحوال الشخصية على أساس طائفي، رابطة المرأة العراقية، (٢٠٢٤-٧-٢٤)، تاريخ الاطلاع (٢٠٢٥-١-١)، على الرابط الآتي:
https://iraqiwomensleague.com/mod.php?mod=news&modfile=item&itemid=78289

٢ - منظمات المجتمع المدني تدعو إلى السحب الفوري لمقترح قانون تعديل قانون الأحوال الشخصية رقم ١٨٨ لسنة ١٩٥٩م المعدل، منظمة حمورابي لحقوق الإنسان، (٢٠١٧-٦-١٠)، تاريخ الاطلاع (٢٠٢٥-١-١)، على الرابط الآتي: https://www.hhro.org/

لا تستحقها، وهذه الأدلة المساقة ذاتها في هذه البيانات الببغاوية، تحمل مصادرها بالأصل تأييدًا لمقترح هذا التعديل، من قبيل نص المادة (٤١) والذي جاء فيها: «العراقيون أحرار في الالتزام بأحوالهم الشخصية حسب دياناتهم أو مذاهبهم أو معتقداتهم أو اختياراتهم وينظم ذلك بقانون»[١].

وهنا، لست بصدد سرد الأدلة التي تدعم مقترح هذا التعديل، لكن لبيان ما تقوم به هذه المنظمات من ممارسات ضد الهوية العراقية من خلال ضرب جذورها الدينيَّة والاجتماعيَّة، بالتزامن مثلمَا أسلفنا مع الضغوط الأمريكية والغربية على المُشرع العراقي للكف عن هذا التعديل.

■ المبْحَثُ الخَامسُ: مِنَصَّاتُ التَّوَاصُلِ الاِجتِمَاعِّي

أصبحت وسائلُ التواصلِ الاجتماعي اليوم جزءًا من المتطلبات اليومية، لا يستطيع الفردُ كجزء من منظومة اجتماعية ولا المؤسسات ككيان جمعي الاستغناء عنها، نظير ملائمتها لمتطلبات القرن الجديد الذي يستلزم سرعة الاتصال ومدى أوسع للتواصل ضمن ما يعرف أو ما يمكن أن نطلق عليه

١ - الدستور العراقي، رئاسة جمهورية العراق، لات، تاريخ الاطلاع (٢٠٢٥-١-١)، على الرابط الآتي: https://presidency.iq/info.aspx?jimare=1002

قروية العالم (العالم قرية صغيرة) ولا يمكن التسليم بالفهم الشائع لهذه الوسائل، ولا الاكتفاء بالصورة النمطية المقتصرة على كون هذه المنصات مجرد وسائل اتصال حديثة مهمتها تأمين سرعة الاتصال ضمن فضاءٍ واسعٍ يخلو من الرقابة ولا تحده جغرافيا. فلا يمكن منطقيا التسليم بهذا الفهم البدائي والذي تطغى عليه السذاجة بشكل كبير فهذه المنصات مُنتَج دول كبرى لم تكن يومًا غاياتها تخلو من المخالب السياسية الهادفة إلى تأمين مصالحها وتحقيق مزيد من الأهداف في سبيل ذلك، وباستخدام شتى الوسائل ولعل أبرزها حاليًا هذه المنصات، من هنا فإنَّ هذا التطور قد فرض واقعًا مغايرًا لما هو معروف، إذا أصبح المجتمع يسبح في بركة مختلطة أكثرها مضاف، سوى من عادات جديدة استمدت رسوخها من قوة الدعاية والنموذج وما يتبع من تأثيرات ناجمة عن هذه العملية. تعتبر مواقع التواصل الاجتماعي اليوم بالنسبة لمنظومة الهيمنة ككل، الأداة الشاملة الأكثر فعالية في رفد وتعزيز معظم الأدوات الأُخرى، لكي تكون أكثر فعالية، فمثلاً، أنَّ أداةَ منظمات المجتمع المدني، اكتسبت فعالية أكثر مع وجود برامج التواصل هذه؛ إذ وفّرت لها الكثير من التسهيلات، واختصرت عليها جهودًا كانت ستقدم عليها من ناحية الوقت والتنقل وغيره، وهذا ما ينطبق أيضًا على السينما التي أخذت أبعادَ كبيرةً مع انتشار «السوشيال ميديا – Social media"؛ حيث وفرت لها قاعدة كبيرة من المشاهدين، ومكانًا خصبًا لإنفاذ الدعاية لأعمالها، وقِس على ذلك معظم

الأدوات الأُخرى. من هنا، تأتي أهمية هذه المنصات في سياق منظومة الهيمنة؛ باعتبارها فاعلة بذاتها وللآخرين في الوقت ذاته، مما يعطي التأثير فعالية أكثر. ومن هذا الجانب يمكن لنا أن نقسم التأثير الذي تتركه مواقع التواصل الاجتماعي إلى عدة محاور، تؤدي كل منها غرضه في تحقيق الهيمنة بسياقها الثقافي، وهذه المحاور:

أَوَّلًا: التَّأثِيرُ فِيْ بِنيَةِ مَنْظُومَةِ القِيَمِ

لكل مجتمع منظومة قيم خاصَّة به، دون أن يمنع ذلك من وجود مشتركات في جوانب معينة مع المجتمعات الأُخرى، مثل الدين والأخلاق وغيرها، هذا المفهوم المتعلق بمنظومة القيم عرفته بعض الدراسات بالآتي: "مجموعة المبادئ والقواعد المتناسقة والمترابطة بعضها مع بعض ضمن إطار واحد يهدف إلى تحقيق جملة من الأهداف المنشودة من الإنسان والمجتمع"[1].

إذًا، ومن خلال هذا التعريف يُصبح بالإمكان الاستنتاج عما سيحصل لو جرى التأثير في البنية القِيميَّة للمجتمع، وما سيصيبه من خلل خطير يؤثر في البدء بتماسك الضوابط المتعارفة التي تحكم السياقات العامة للمجتمع، وفي بعض الأحيان تصل ارتدادات هذا التأثير إلى نسيج

١ - رواء كاظم مزهود وابتسام محمد عبد: منظومة القيم - ماهيتها ومرتكزاتها الرئيسة -، ص٦٦.

المجتمع كبنية وحدوية. المجالات التي تفتحها هذه المواقع، يضع المستخدم أسيراً لها ومدمًا بذات الوقت، مما يؤثر في الكثير من جوانب حياته المهمة الأُخرى، والتي بدورها تشكل عناصر جوهرية في منظومة القيم، وللبرهنة على ذلك، كشف إحدى الدراسات ووفق بيانات إحصائية على عينات شبابية، عن الأمر بقولها: «... حيثُ جاء التقصير في أداء الفرائض في المرتبة الأولي بنسبة ٢٠٪ يليه تكوين صداقات مع الجنس الآخر بنسبة ١٨٪... يعكس ذلك الدور التي تلعبه مواقع التواصل الاجتماعي في تدمير وتحطيم منظومة القيم الأخلاقية والدينية، بسبب استخدامها لفترات طويلة دون رقيب، مما يتسبب في خلق العديد من المشاكل التي تدمر منظومة القيم في المجتمع ...»[١].

وفي جانب آخر ونتيجة الأدوار الافتراضية التي تسمح بها هذه المواقع، وبما أنَّ التواصلَ يجري ضمن هذا السياق، مما يعني إلغاء الحضور الواقعي لصالح الاتصال الافتراضي -التواصل عن بعد- فإنَّ كل هذا أدى إلى إضعاف الدور الذي تلعبه الأماكن التقليدية في تنمية منظومة القيم في المجتمع، مثل دور العبادة، والجلسات العشائرية، ومن جهة أُخرى خلخلت هذه المواقع، انتقال الخبرات الخاصة أي التعلُّم والمعرفة (المقصود المعنى العام ها هنا للمفردتين للأفراد)، بين كبار السن سواء

١ - أسماء محمد مصطفي: استخدام شبكات التواصل الاجتماعي وانعكاسها على تشكيل قيم الشباب الجامعي، ص٣٠٦.

كان الوالدين وصعودًا أو الأقرباء وغيرهم مع الأجيال الجديدة، مما صنع فجوة قد تتسع أكثر مستقبلاً بين الأجيال، مما يعني قد نرى في المستقبل أنَّ القِيَم التي نعرفها قد تغيرت كليًّا، وهذا غاية ما تصبو إليه أمريكا وبقيَّة الدول الكبرى من استخدامها لهذه الأداة وغيرها من الأدوات الضغط بهذا الاتجاه، لتحقيق هذه النتيجة وغيرها، والتي تمكنها من تطويع هذه المجتمعات من أجل عرقلةِ مشاريعها التوسعية.

ثَانِيًا: ضَرْبُ الهَوِيَّةِ الثَّقَافِيَّةِ

بعض التفسيرات التي تحملها الهوية، منطلقة من الاشتقاقات اللغوية، أي أنَّه يتم إرجاعها إلى «الهُو»، أي الذات كتفرد يحمل في طياته معنى الاختلاف عن الآخر، مثلما الآخر يحمل ذات الأمر، فيتميز عني على أساس ذلك، وفي هذا الصدد يذكر أحد الباحثين ذلك بقوله: «في كتاب تلخيص ما بعد الطبيعة يقول فيلسوفنا (ابن رشد) 'إنَّ الهوية تقال بالترادف للمعنى الذي يطلق على اسم الموجود وهي مشتقة من الهو -كما- تُشتق الإنسانية من الإنسان، وهو بهذا يعود بنا إلى مفهوم الهوية أو الذاتية في منطق (أرسطو) باعتبارها تماثل الشيء مع ذاته'»[1]. بغض النظر عن مدى تماشينا مع هذا التفسير الاشتقاقي لمعنى الهوية، لكن ما يهمنا هو التعبير

١ - شيب عادل: الهوية والثقافة -إشكالية المفاهيم والعلاقة -، ص٥.

عن الذات في هذا الرأي، أو بشكل أدق تعبير الهوية عن الذات، سواء كان هذا الذات فردًا أو جماعة، من هنا إذن تظهر الإشكالية الخاصة، إذا ما تم استهداف نقطة التميز هذه، لصالح محاولة جر الكل إلى النموذج الأمريكي أو الغربي بشكل عام، ومن المعروف أنَّ أحدَ الأهداف العامة للهيمنة الثقافية هو تذويب الهويات الخاصة بالمجتمعات باعتبارها التعبير الفردي والمتميز لها، ومن ثمَّ إلحاقها بركب الحلم الأمريكي، إنَّ الهويَّة الثقافيَّة بشكلٍ عام لأي مجتمع تتكون من عناصر عدة وهي معروفة مثل الدين والعادات والتقاليد، واللغة والتاريخ و...، إنَّ المُلاحَظَ في هذا السياق أنَّ جميع هذه العناصر والتي تشمل بمجموعها مفهوم الهوية، هي الأكثر تعرضًا للاستهداف من قبل جميع الأدوات سواء مانت الثقافية منها أو غي ذلك. إجمالاً يكمن تأثير مواقع التواصل الاجتماعي على مفهوم الهويَّة من خلال عدة جوانب متصلة بهذه العناصر، ولعل في مقدمتها: اللغة، فمن المتعارف في ميدان البحث العلمي حينما يتناول موضوع مواقع التواصل الاجتماعي، فإنَّ اللُّغةَ دائمًا ما كانت حاضرةً كصِبغة سلبيَّة في طيات الحديث عن مواقع التواصل الاجتماعي، حتى في الدراسات التي تناولت موضوع السوشيل ميديا بشكل حيادي أو مؤيد لها، لم تخرج اللغة عن السياق السلبي التي توصمها به هذه المواقع، فالحديث غالبًا ما يتم من خلال تبادل الرسائل النصيَّة، أي لا تواصل صوتي مباشر، بل رسائل متضاربة لغويًّا نتيجة تأثير المواقع في تشبيك

المفردات الدخيلة مع اللغة الأم للمستخدم، وهذا بطبيعة الحال وكما تؤكده إحدى الدراسات: «... تؤدي إلى زعزعة منظومة المفردات اللغوية للفرد، بسبب عدم التواصل الطبيعي، وقلة النطق باللغة العربية؛ حيثُ يُلاحَظ أنَّ مستخدمي التواصل الاجتماعي لا يتكلمون باللغة العربية لعدم وجود حوار شفهي، وإذا كتبوا النصوص يعتمدون لغة عربية غير صحيحة وفيها عبارات أجنبية ...»[1]. إنَّ المسار العام الذي تسير وفقه مواقع التواصل الاجتماعي هو السرعة، وهو بحدّ ذاته إغراء للمراهقين، ساهمت هي نفسه في تكوينه، ومن هذا الباب أيضًا يتم ضرب اللغة، لذلك نجد منذ تأسيس هذه المواقع وشيوعها في الأوساط الشبابيَّة، ظاهرة الاختصار، حيث تُختصَر الكثير من الكلمات بين المراهقين وفي مراتٍ كثيرة الناضجين أيضًا، تماشيًا مع هذا العقل الجمعي، وهم بذلك يُعبرون مثلما أسلفنا عن مسار السرعة التي تحثها عليهم هذه المواقع، سرعة التعليقات وإبداء الآراء والتصفح و...، وفي سياق متصل تذكر إحدى الدراسات ظاهرةَ دمج الأحرف اللاتينية بالإضافة إلى الاختصار طبعًا، كهدف غربي للقضاء على اللغة العربية، فتذكر: «فالمخطط التغريبي الغربي الذي يجري اليوم اتجاه اللُّغة العربية وآدابها ينضح له

١ - هنية صوالحة وهناء فارس: أثر استخدام مواقع التواصل الاجتماعي على الهوية الثقافية لدى الشباب الجامعي- دراسة ميدانية على عينة من الشباب بجامعة تبسة -، ص١١٤.

الجبين، الهدف منها القضاء على العربية، وتشويهها عبر وسائل التواصل الاجتماعي، وهدفه هو أن يستبدل بالأحرف العربية أحرفًا لاتينية، فيستبدل بالحرف العربي ما يقابله في اللاتينية، وبحكم ثراء هذه اللغة، فقد وجدوا أنَّ هناك من الأحرف العربية ما لا يقابله حرف في اللاتينية، فاستبدلوا به رقمًا؛ وذلك لتغطية القصور الذي في أحرف اللاتينية ...»[1].

إنَّ استهدافَ اللُّغةِ لا يأتي بوصفها مجرد كلماتٍ عابرةٍ أو لغة اتصال وتواصل، بل لأنَّها عنصرٌ من عدة عناصر تعبر عن الكينونة الذاتية للمجتمع، لهذا الأمر مدخلية عميقة في تطويع الأفراد اتجاه الأفكار الغريبة عنهم بل وقبولها.

وفي جانب آخر، جاءت هذا المواقع لتشكل مع الأدوات الأُخرى أسلحةً موجهةً ضدَّ الدين، فكثير من المحتويات التي تنشر فيها مخالفةً للمعتقدات ومن جانب آخر تشكك فيها، لكنها تقوم بذلك في مسارٍ دقيقٍ مراعيةً مبدأَ الطرح المباشر وغير المباشر في تناول المواضيع؛ إذ غالبًا ما تنتشر الشعارات الرنانة، والمثبتة حتى في معايير المجتمع كما يسموه، والتي تدعو فيها لنشر التسامح الديني وعدم التحريض على المعتقدات وإلخ. هذا فيما يخص المحتوى في البلدان الإسلامية، في المقابل نجد أنَّ المحتوى الغربي يبقى -دون تحديد- قافزًا على كل التقييدات «لا يمكن

١ - أبكر عبد البنات آدم: وسائل التواصل الاجتماعي وأثرها على تعليم اللغة العربية في ظل التطور التكنولوجي -دراسة وصفية تحليلية -، ص٢٨.

إخفاء حقيقةِ زيادة التسامح مع انتشار خطاب الإسلاموفوبيا على وسائل التواصل الاجتماعي...»[١].

قلنا فيما سبق: إنَّ أهميَّة مواقع التواصل الاجتماعي تكمُن في قدرتها الذاتية على تدعيم الأدوات الأُخرى في تحقيق أهدافها، وتعزز من الوصول السريع إلى العينات المستهدفة. من هنا يأتي التركيز على المحتوى بشكلٍ عام، بغض النظر عن مصدره، سواء أكانت منظمات مجتمع مدني أم جيوش إلكترونية تابعة لإحدى الجهات المعادية وغيرها كثير؛ لأنَّه في نهاية المطاف سيكون ضمن خوارزميات السوشيال ميديا، يعمل مثلما نؤكد مرارًا على تدعيم الأدوات الباقية، ومادام الهدف الواحد بالمحصلة، فسيان تعدد الوسائل في هذا الجانب. عملت مواقع التواصل الاجتماعي في العراق فيما يتعلق بالدين على مستويات مختلفة، خاصَّةً مع وجود دعائم كبرى له في هذا البلد، متمثلةً بوجود مراقد الأئمةِ المعصومين(ع)،

---

١ - مركز الخليج العربي للدراسات والبحوث: إدمان الانترنت ومواقع التواصل يهدّد المعتقدات الدينية ويحرض على الإلحاد، (٢٠٢٣-٨-١٧)، تاريخ الاطلاع (٢٠٢٥-١-٤)، على الرابط الآتي:
https://www.csrgulf.com/202317/08//%D8%A7%D8%AF%D985%%D8%A7%D986-%%D8%A7%D984%%D8%A7%D986%%D8%AA%D8%B1%D986%%D8%AA-%D8%A7%D984%%D985%%D8%B9%D8%AA%D982%%D8%AF%D8%A7%D8%AA-%D8%A7%D984%%D8%A7%D984%%D8%AD%D8%A7%D8%AF/

وكذلك الحوزة الدينية في النجف الأشرف، وفي مقدمة كل ذلك زيارات مليونية سواء في الأربعين، أو غيرها من زيارات المراقد المقدسة في كلٍ من الكاظمية وسامراء، هذا الزخم والتعلق الروحي على المستوى الفردي والجماعي، خاصة مع وجود مجالس حسينية على مدار السنة، وحضور الفئة الشبابية فيها، تتطلب التعامل بحذر شديد مع منظومة الهيمنةِ الأمريكيَّةِ كالسوشيال ميديا، خاصة أنَّ الشخصية العراقية التي نستطيع وصفها على المستوى الشخصي بأنَّها مُعاندة، لا تلائمُها الطروحات المباشرة في المخالفة، وستصدها بشكلٍ فوري، وانطلاقًا من هذه المعطيات نستطيع إجمالًا تلخيص هذا التعامل وفق الآتي:

التعاملُ بواقعيَّةٍ، ووفق نسقٍ تدريجي مدروس، لم تتم مهاجمة الدين الإسلامي مباشرةً، في كثيرٍ من الأحيان لجأت منصات التواصل الاجتماعي لصُنع شخصيات مشهورة، تظهر وكأنها قادمة من خارج البيئة الدينيَّة، حيثُ تبدأ بمناغمة المناسبات من مجالس وغيره، من حيثُ كيل المديح و...، ومن ثمَّ كسب ودِّ قطاعاتٍ مختلفةٍ من الجماهير المُحبة، وبعد أن يتم ابتلاع الطعم، يبدأ العمل ولكنْ وفق تدرجاتٍ معينة، مثلًا: إضافة السلبيات أثناء المديح، ومن ثم تصاعدًا تقليل الأخيرة والإكثار من النقد السلبي، وصولًا للحالة القصوى التي قد يصلها أو لا يصلها ألَا وهي الهجوم على الفعاليات الدينيَّةِ. ومن خلال متابعاتنا، في كثير من الأحيان لا يصل أمثال هؤلاء لهذه النقطة،

تفاديًا لردات الفعل القوية التي يمكن أن يبديها العراقي، وعمومًا هم لا يخطون الخطوة الثانية والثالثة إلا بعد ضمان كسب ود جانب معين من الجماهير.

التأسيسُ من البيئة، في هذا السياق، عملت مواقع التواصل الاجتماعي على إبراز شخصيات بلباس ديني لتتصدره في مضمار السوشيال ميديا، تبدأ من نقطة معينة تنطلق من خلالها، وقد تكون أي شيء: استغلال "الترند – Trend"، أو التماشي مع الشباب وكثير من الطرق الأُخرى. وبعدها يتطور الأمر للوعظِ والإرشاد، وُصولاً إلى المراحل الحرجة بالنسبة إليهم والخطرة بالنسبة إلى الشباب، ألا وهي القيام بسلوكيات معينة غير مألوفة أو متعارفة ضمن الأوساط الدينيَّة، الاستناد إلى الروايات الضعيفة وتصديرها كأمرٍ مفرغ منه، الإرشاد والتعليم الخاطئ في المجال الديني، خاصة أنَّ كثيراً من مرتادي السوشيال ميديا عمومًا لا يهمهم التأكد من صحة ما نُشر، بل يبادر كثيرٌ منهم للتصديق مباشرة، الوصول إلى سلوكيات منبوذة لا تُلائم الإنسان بشكل عام فضلاً عن رجل الدين، والهدف هو حثُّ الناسِ على تعميم هذه الصورة على رجال الدين بالمجمل في ذهنيتهم. وفي حالات معينة قد يغادر اللباس الديني هنا، للإيحاء بأنَّه قد أصبح أكثر تنوُّرًا الآن واتزانًا.

التشكيك بالتقليد عبر إثارات محببة لنفسيَّة الشباب والمتمثلة بقضية العقل واستقلاله، والاستفهام المثار دومًا كيف تُحيل أمورَ دينِك لعقل

شخص آخر وهكذا، إنَّ العملَ وَفق الإطلاق المستمر لهذه الشعارات وفي ظل السوشيال ميديا -كبيئة تهضم المحتوى دون البحث عنه والتأكد من صحته- فإنَّ هكذا أساليب من شأنها أن تتركَ الأثرَ في بعض الفئات من المتلقين لها.

الانتقادُ المستمرُ للزيارات الدينية المليونيَّة -وبطرق شتى- من قطع الطرق وإيقاف الحياة إلى التركيز على السلبيات وتكبير العدسة عليها، من أجل التعميم والتغطية على هذه الزيارة أو تلك ككل، من إطعام الفقراء بالأموال التي تصرف وغيرها الكثير، تتم مهاجمة الفعاليات الدينية.

مضافًا إلى كثير من الأساليب والممارسات التي تعج بها السوشيال ميديا فيما يخص هذا الجانب، وهي كثيرة. فيما يخص ارتباط هذا الأمر بتحقق الهيمنةِ، فإنَّه يكمن من جهة المحاولات المستمرة عبر هذه الطرق وغيرها، والتي يهدفون من خلالِها إلى إفراغ المستهدف من محتواه الديني (أي قطع الصلة بينه وبين هويته الروحية)، من خلال حثِّه في البدء على التشكيك في هذه الفعاليات وجدواها، أو من خلالِ حصره بمعلوماتٍ دينيَّةٍ مضللة. من خلال النقاط التي ذكرناها، كل ذلكَ من شأنه أن يحققَ من عملية الهيمنة من خلال إكمال جوانب متعلقة بالأدوات الأُخرى، أي تلك التي تدعو لنمط الحياة الأمريكية، وهي أشبه ما يكون بعملية إلحاق وربط، لهذا المستهدف بهوية جديدة، تكون مُسهمة من داخله بتحقيق الهيمنةِ.

ثَالِثًا: التَّافِهُونَ وَالإِدْمَانُ.

بعد أنْ دخَلَتْ هذه المنصات عنوةً إلى الأفراد والمجتمعات وأمست حاجةً ملحةً للحياة، سُرعان ما بدأت أنيابُها السَّامة بالظهور، مضافًا إلى ما ذكرناه، أخذت عدةُ قضايا في البروز أكثر، منها: التفاهة، أو سطوة التافهين على المحتوى في المجال العام لهذا الواقع الافتراضي، أو كما يذهب (ألان دونو-Alan Dono)[١] في تصوير الفضاء العام كليًّا بكونه يميل إلى نظام تفاهة، ويمكن اقتباس الفكرة العامة من هذا الأمر وتطبيقه على منصات التواصل الاجتماعي، ولو أنَّ الحالة وصلت إلى مرحلة اندماج شبه كلي، من كون الفضاء الافتراضي أصبحَ يحتلُّ الواقعَ، في كثير من الجوانب، من هنا يصف أحدُ الباحثين نظام التفاهة، بقوله: «هو النظام الذي يُولي فيه المجتمع الأهميَّةَ والعنايةَ للرداءة والانحطاط، يُسلط الضوء على كل ما لاقيمةَ له، فيه يكون كل ما يُنتَج تافهًا ...»[٢].

في الحالة العراقية برزت لدينا عدةُ حالات تماشت مع الفكرة الكلية لما ذكرناه، مع خصوصية خطرة تمثلت في وجود حالة عامة من الجهل نمت واستوعبت هذه النماذج، وأوصلتها للتَّأثير لا من حيث دعم منصات التواصل الاجتماعي لإبراز وإشهار هؤلاء فقط، بل من حيثُ ترديد المقولات الصادرة من قِبلهم على المستويات الشعبيَّة. يمكن أيضًا ملاحظة غالب هذه النماذج تحمل أسماءً لها خصوصيَّات معينة وروحية في نفسية المجتمع العراقي، ولهذا الأمر خطورة كبيرة

---

١ - فيلسوف كندي، دكتور في الفلسفة، مؤلّف كتاب نظام التفاهة.

٢ - نعامي فاطمة: خطاب التفاهة في فكر ألان دونو وانعكاساته السياسية، ص٢٨.

على المتلقين الناشئين، تتمثل بترك هذه الأسماء انطباعًا سلبيًّا قد يُسحب في مرحلةٍ من المراحل إلى عناوين لها مكانتها القُدسية في نفوس الشعب العراقي. في سياق آخر تسبب الدفع بالمحتوى التافه للأمام وتصدره للمشهد، في تناسي ونسيان القضايا الجوهرية والتي من المفترض أن تكون لها الصدارة والاهتمام، فيما يخص تناولها وتداولها في مساحة النقاش التي توفرها هذه المنصات، هذا الأمر جعل من مناقشة وتناول «القضايا الجوهرية» مجرد مثاليات، يُتهمُ المتحدث فيها بشتى التهم، ليس أولها إنه يعيش في برجٍ عاجي أو إنه لا ينتمي إلى هذا الفضاء، وعادة ما يتم اختصار الأمر برمته بالتعبير الشعبي العراقي «بطران»، فالرقمنة التي اتجه إليها العالم، وتحويل كل شيء إلى مادَّة سريعة لتلائمَ هذا المَنحَى الجديد في بناء الأشياء وإظهارها، بات أمرًا بديهيًّا، ينسحب إلى كل مجال واتجاه، وبالتأكيد كانت مواقع التواصل الاجتماعي الحاضنةَ الأهمَّ والأداةَ الأكثرَ نجاعةً في نجاح هذا التحول «هذه المنصات التي تعتمد على المحتويات القصيرة والفورية، أصبحت الحاضنة الرئيسية لصناعة التفاهة»[1]. وفي خضم ذلك وبالتزامن مع مجريات

---

١ - إسماعيل الحمراوي: صناعة التفاهة - تهديد صامت للوعي الاجتماعي -، (١٣-١٠-٢٠٢٤)، تاريخ الاطلاع (٨-١-٢٠٢٥)، على الرابط الآتي:
https://www.assahifa.com/%D8%B5%D986% %D8%A7%D8%B9%D8%A9-%D8%A7%D984% %D8%AA%D981% %D8%A7%D987%%D8%A9-%D8%AA%D987% %D8%AF%D98 %A%D8%AF-%D8%B5%D8%A7%D985%%D8%AA-%D984%%D984%%D988%%D8%B9%D98%A-%D8%A7%D984%%D8%A7%D8%AC%D8%AA%D985%/

هذا التطور حملت معها المحتوى السطحي كتعزيز لثقافة السرعة من خلال قصر المواد المنتشرة سواء كانت (فيديوهات - Videos) وكلمات وغيرها على دقائق معدودة، لا تتطلب وقتًا طويلاً في المشاهدة، لكنَّها بالتأكيد تقتل كلَّ حافزٍ متكامل للقراءة من خلال تأثيراتها الكبرى في الدماغ وبالذات الخلايا العصبية المسؤولة عن الانتباه والحفظ.

وفي هذا الصدد تؤكد الكثير من الدراسات الغربية على هذا المنحى؛ "إذ أظهرت دراسة تحت عنوانImpact of Social Media on Attention Span and Cognitive Engagement فيJournal of Behavioral Addiction عام ٢٠٢١ أنَّ التعرضَ المستمر للمحتوى القصير قد يُضعف التركيزَ الطويل المدى والتفكير العميق ...، كما أنَّ السلوكيات الخاملة المرتبطة بالجلوس لفترات طويلةٍ أمام الشاشات تؤدي إلى تقليل توليد الخلايا العصبية الجديدة في الحصين، وهو جزءٌ من الدماغ مهم للذاكرة والتعلم، بحسب مقالة 'السلوك المستقر والتكوين العصبي' المنشورة عام ٢٠١٧م في جريدةFrontiers in Human Neuroscience"[1]. لا يقف الأمر عند هذا الحد بل يتعداه لكون هذا الحث على هذا الإدمان السريع في مشاهدة الأشياء يسبب أضرارًا نفسيةً ودماغيةً في آن واحد،

١ - هلا كريم: الـ"ريلز" بين تدفق المعلومات وتعفن الدماغ، (٢٠٢٥-١-٥)، تاريخ الاطلاع(٢٠٢٥-١-٨)، على الرابط الآتي:
https://n9.cl/https___www_independentarabia_

من خلال أنَّ ما يسمى)الريلز - Reels) يوهم المتلقي بالشعور بالسعادة، أو كما يُصطلح عليه بالسعادة المؤقتة عبر إفراز إحدى الهرمونات، هذا الأمر الذي يؤدي إلى حدوث فجوة عميقة بين الواقع المعاش كمتطلبات وتوقيتات تتطلب سياقات مختلفة عن الإدمان الجديد الذي دفعه إليه الريلز، وخصوصًا لدى المراهقين، وتؤكد إحدى المختصات على ذلك، بقولها: "هذه الفيديوهات القصيرة تعمل على تدفق هرمون الدوبامين وبالتالي تمنح شعورًا بالسعادة المؤقتة، والتي يسعى إليها الشخص، كما هو الحال لدى المدمن"[1]. هذا المنحى الخطير في ظل الإدمان الفعلي لا الوصفي والمجازي كما قد يعتبره البعض -لأنَّ الإثارةَ في الدماغ ثابتة وفق الدراسات العلمية- لم يؤدِّ فقط لإغراق الأجيال الشابة والناشئة في مستنقع التفاهة، أو الثقافة السريعة المتمثلة بالريلز، بل أخذ في سرقة مستقبلهم العلمي لا مجرد الحاضر السياسي والثقافي والروحي.

---

١ - سكاي نيوز: يؤثر على تركيزهم - دراسة تحذر من إدمان غريب بين المراهقين -، (٢٠٢٣-٥-٢٩)، تاريخ الاطلاع(٢٠٢٥-١-٨)، على الرابط الآتي:
https://www.skynewsarabia.com/technology/1624950-%D98%A%D988%%D994%%D8%AB%D8%B1-%D8%AA%D8%B1%D983%%D98%A%D8%B2%D987%%D985-%%D8%AF%D8%B1%D8%A7%D8%B3%D8%A9-%D8%AA%D8%AD%D8%B0%D8%B1-%D8%A7%D995%%D8%AF%D985%%D8%A7%D986-%%D8%BA%D8%B1%D98%A%D8%A8-%D8%A7%D984%%D985%%D8%B1%D8%A7%D987%%D982%%D98%A%D986%

ماعلاقة كل ذلك إذًا بالهيمنة الثقافيَّة؟ ترتبط كل القضايا التي ذكرناها بمسألةٍ مهمَّة وهي العمل على ضياع الهويَّة الذاتيَّة للفرد كـ«مُنْتِمٍ» لهذا المجتمع، أو الجماعات المُشكِّلة له ككل، وبغضّ النظر عن طريقة حدوثه سواء كانت من خلال الحثِّ النفسي ليقومَ الفردُ بنفسه بهذا العمل، كما يحدث عند مشاهدة الريلز الترفيهي السطحي العابر، أو من خلال قيام هذه المنصات بتحجيم المحتوى الهادف وتوسيع دائرة المواد التافهة والإباحية وغير ذلك. ومن جهة أُخرى، فإنَّ تَتَفُّهَ الأشياء باستمرار يُفوت على الإنسان كلَّ التهديدات التي تطاله مهما اقتربت منه، كما ويؤدي إلى عدم إيلائه الاهتمام بالقضايا الجوهرية التي تمسُّ انتماءه أيًا كان، في قبالة ذلك أن ديمومة الغرق الذي تعاني منه مثلاً جماعات معينة كالطلاب، يُسهم كما أسلفنا إلى تدمير الخلايا العصبية في الدماغ وخصوصًا تلك المسؤولة عن الحفظ والانتباه والتركيز، وهي عناصر أساسية في عملية التعليم، وهذا ما يحدث بالتزامن مع الأدوات الأُخرى والتي تعمل على فرض أنماط تدريسيةٍ معينة، ومناهج مواكبة للتعليم في العالم، والذي بدوره يؤدي إلى تحطيم المنظومة التعليمية ككل، سواء من خلال عملية فرض المناهج وطرق التدريس عن طريق المنظمات الدولية الضاغطة، أو من خلال الفاعليات والمحتوى الترفيهي والسطحي الذي تقدمه منصات التواصل الاجتماعي، وخصوصًا ثقافة السرعة التي أغرق المجتمعات بها، والذي بدوره ينتج إدمانًا حقيقيًّا وفعليًّا للمراهقين والشباب، وفصل

نفسي عن واقعهم المختلف عن ما يشاهدوه على السوشيال ميديا، ومن ثمَّ اضطرابات وغيرها، تؤثر على أنماط التعلم من قِبل الطلاب، مما يعني تدمير هذه المنظومة من كلا الوجهتين، وهذا بالذات ما يحصل لدينا في العراق، وإلا ماذا يعني أنَّ تلميذًا في الابتدائية يدخل دروسًا خصوصية؟ وما هو التفسير المنطقي إلى الاتكال المفرط والكبير الذي يجنح إليه طلاب الثانوية على هذه الدروس، وربطها بمستقبلهم كما لو أن لا طريق للنجاح سوى هذه المسارات.

الخَاتِمَةُ

قد تكون الهيمنةُ الثَّقافيَّة ومن خلال أدواتها التي ذكرناها أو تلك التي لم تُذكر، منظومة قوية ومتكاملة، وهي ذات فعالية كبيرة خصوصًا وأنها تختزل لنفسها تقريبًا كلَّ الوسائل المتقدمة، سواء كانت تقنية أو إعلامية أو غير ذلك، لكنها مع ذلك ما تزال غير ناجحة كليًّا، فكما للاحتلال العسكري حركات مقاومة مضادة، كذلك للهيمنةِ الثقافيَّة أيضًا ممانعة حتى في المجتمعات التي لم تفكر في كيفية التصدي لها، فالمقاومة كامنةٌ في ذات الهوية التي ننتمي إليها، حتى لو لم يتم تفعليها بالطرق التي يجب أن تكون، تبقى هي بحدّ ذاتِها حائط صد مضمر، ولعلَّ من المصاديق الساطعةِ على ما نقول هو الزيارة الأربعينية، إذ رغم عدم تنظيمها وفق أُطر مؤسَّساتيَّة، ووفق اتجاهاتٍ معيَّنة، يحولها عمدًا إلى جهاز تصدي، أي تتوافر القصديَّة في توجيهها نحو هذا الهدف، ألا إنَّها ورغم كل ذلك، شكلت بذاتها، ومن خلال اللامركزية المتبعة فيها، جهاز فاعل سواء بإزالة الصورة النمطية عن الشخصية المسلمة بالعموم والعراقية بشكل خاص، ذلك الانطباع المرسوم من قبل أدوات الهيمنةِ الثقافيَّة سواء كانت السينما

أو غيرها، إذا أبرزت الصورة العراقية بالطريقة الأمثل، من خلال الخدمات المتنوعة التي قدَّمها ويقدمها العراقيون في هذه الزيارة، بالإضافة إلى أنَّ الأعداد المشاركة فيها جعلها تُصبح من أكبر التجمعات الدينية في العالم إذا لم يكن أكبرها، «تصدرت زيارة الأربعين التي تشهد توافدَ مليوني من مختلف دول العالم صوب مدينة كربلاء المقدسة لائحة أكبر التجمعات السلمية في التاريخ. وأعدت الموسوعة لائحة بأكبر التجمعات السلمية المحتملة في التاريخ لأُناسٍ اجتمعوا في مكانٍ واحد لغرض واحد.[١]"

كلُّ ذلك جعل هذه المناسبة محط اهتمامٍ وسائل الإعلام العالمية، والصحفيين، ومن مختلف الديانات والجنسيات والدول. إنَّ الخدمات المجانية التي تقدم للملايين من الزوار، والتفاني الذي قدمه ومازال يقدمه أصحاب "الخدمة الحسينية، ومن كافة الفئات العمرية، من الطفل مرورا بالشباب وكبار السن، بالإضافة إلى غيرها من الفعاليات التي تواكب هذه المسيرة، ساهمت في مزاحمة بل وإزاحة الصورة النمطية التي شكلتها السينما ووسائل الإعلام المعادية، عن العراقي وعن الدولة من ناحية الأمن ومتعلقاته والتنظيم وغيره. في قبالة ذلك شكلت قضية إحياءِ

١ - زيارة الأربعين تتصدر لائحة أكبر التجمعات السلمية في التاريخ، الموقع الرسمي للعتبة الحسينية المقدسة، (٢٠١٩-١٠-١٦)، تاريخ الاطلاع(٢٠٢٤-١٢-٣)، على الرابط الآتي:

https://imamhussain.org/arabic/27058

الشعائر الحسينية باستمرار عاملَ تصدٍّ مهم ومؤثر في هذا المضمار، نتيجة أن ممارستها تؤدي إلى ترميم أو إعادة ارتباط الفرد بهويته الدينية والمجتمعية "وتأتي زيارة الأربعين لتكون الرافد الثقافي العقائدي للشباب ...، ويستمدون منها ثقافة إيجابية لا سيَّما في مجال الأفكار ... تجعلهم أكثر أملا بالحياة وأكثر تشبُّثًا بالتطور والتقدم والإنتاج والابتكار، وهذا ما نلاحظه لدى الجموع الشبابية الغفيرة التي تجوب أرضَ كربلاء المقدسة، وتسهم في فعاليات فكرية وثقافية وخدمية متعددة ...، منطلقين ومسترشدين في ذلك بالفكر الحسيني الذي وضع قواعد تفضيل الآخرين على النَّفس من خلال ترسيخ قيم الإيثار، وجعلها قيمة ثقافية سلوكية تمُثل ثقافةَ حياةٍ للشباب المسلم.[١]"

مع ذلك ورغم وجود المقاومةِ كامنة في الهوية، أي بالذات التي ننتمي إليه، لكن هي ليست في كل الأحيان مفعلةً تلقائيًّا، وهنا يحتاج القائمون والمتصدون سواء كانوا رجالَ سياسةٍ أو منتمين إلى مؤسسات دينية، العمل وفق الآتي:

يجب الدفعُ بتشريع قوانين تُحجم من عملِ الكثيرِ من المؤسسات ابتداءً، وصولاً إلى إلغائها المِلي إن أمكن؛ لأنَّها تُشكل مثلما أسلفنا

١ - زيارة الأربعين والمسؤولية الثقافية للشباب، شبكة النبأ المعلوماتية، (٢٠١٥-١١-٢٤)، تاريخ الاطلاع(٢٠٢٤-١٢-٣)، على الرابط الآتي:
https://annabaa.org/arabic/annabaaarticles/4311

أدوات أمريكيَّةً لتحقيق الهيمنة الثقافية.

تقعُ على عاتقِ المؤسسات الثقافية والدينية، الاستمرار بالعمل البحثي فيما يخصُّ الكشف عن العملِ الحقيقي الذي تقوم به بعض الجهات، والتي تندرِج ضمن منظومةِ الهيمنةِ الأمريكيَّةِ.

جـ. مزامنة النتاج البحثي -أي الجهد التنظيري مع الواقع العملي على الأرض- والمتمثل بالدورات المنتظمةِ لعيناتٍ من الشباب، والتي تقع على عاتقهم مهمة التوعيةِ حول الهيمنة.

نرى من الضروري استغلال المناسبات الدينيَّة في توعية عموم الناس بمخاطر الهيمنة، من خلال المنابر والمجالس الحسينية وغيرها.

ختامًا، إنَّ مهمةَ التصدي لمنظومة الهيمنة الثقافية يقعُ في خانة التكليفِ الشرعي، لأنَّها تؤدي للمساس بالهويَّة الإسلامية للمجتمعِ، وسلخ أفراده عن انتمائهم الروحي، مضافًا إلى كونه واجبًا وطنيًّا أيضًا، فالهيمنةُ الثقافيَّةُ الأمريكيَّةُ حينما تؤدي إلى فصل الأفراد عن هويتهم الدينية والاجتماعية، فهي تهدف إلى إلحاقهم بهويتها المشوَّهةِ والهجينةِ، ومن خلال ذلك يُصبح من السهل تطويعهم اتجاه الأهداف المرسومة من قِبلهم، أو على أقل تقدير القضاء على أيِّ مقاومةٍ تضادُّ مشاريعهم، من خلال عملية الإخضاع النفسي هذا، مما يعني تهديدًا للدولة ككل، سواء بركنها الاجتماعي المتمثل بالشعب، أو من خلال عنصر السُّلطة، أي حينما يُرهن القرار السياسي بيدِ حفنة من المُنوَّمين مغناطيسيًّا اتجاه الحُلْمِ الأمريكيّ.

لَائِحَةُ المَصَادِرِ وَالمَرَاجِعِ

الكتب والمجلات

القرآن الكريم

■ أسعد صالح شملان: «الهيمنة - دراسة في تحولات المفهوم -»، مجلة كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، القاهرة، المجلد ١٩، العدد ٤، ٢٠١٨م.

■ لورد حبش: "الهيمنة في العلاقات الدولية" - مراجعة للمفهوم في ضوء الحالة الأمريكية -"، مجلة سياسات عربية، الدوحة، العدد ٤٨، ٢٠٢١م.

■ مروة خليل: " مفهوم الهيمنة في نظريات العلاقات الدولية"، المجلة العلمية لكلية الدراسات الاقتصادية والعلوم السياسية، الإسكندرية، المجلد ٥، العدد ٩، ٢٠٢٠م.

■ أسعد عبد الوهاب عبد الكريم وعلي هاشم زامل كايم: "فكرة الهيمنة الأمريكية عند جوزيف ناي وبريجنسكي"، مجلة تكريت للعلوم السياسية، العراق، المجلد ٣، العدد ١٠ ، ٢٠١٧م.

■ محمد بن إسحاق الرازي: مختار الصحاح، المطبعة الأميرية، القاهرة، لاط، ١٩٢٠م/١٣٣٨هـ.

■ مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط٤، ١٩٨٤م.

■ مريم وحيد: "دور السينما في تشكيل الرأي العام العالمي - دراسة حول صورة العربي في السينما الغربية -"، مجلة السياسة والاقتصاد، القاهرة، المجلد ١٦، العدد ١٥، ٢٠٢٢م.

■ مريم وحيد: أنماط توظيف السينما السياسية، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، المجلد ٤٣، العدد ٤٩٦، ٢٠٢٠م.

■ ميلود دقيق: "هوليوود في خدمة السياسية الأمريكية"، مجلة فتوحات، الجزائر، العدد٤، ٢٠١٧م.

■ ساكر صباح: السياسية الأمنية الأمريكية من خلال الفيلم الروائي - دراسة سيميولوجية لعينة من الأفلام الأمريكية من فترة الحرب العالمية الثانية إلى ما بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١م -، رسالة دكتوراه جامعة الجزائر٣، ٢٠١٦م.

■ جاك شاهين: الصورة الشريرة للعرب في السينما الأمريكية، ترجمة: خيرية البشلاوي، القاهرة، المركز القومي للترجمة، لاط، ج١، ٢٠١٣م.

■ ديمة لطفي محمود حمدان والرجبي: المثلية الجنسية على شبكة نتفليكس العالمية - عينة مختارة من المسلسلات نَموذجًا -، رسالة

ماجستير جامعة الشرق الأوسط، عمان، ٢٠٢١م.

■ منار عبد المجيد عبد الكريم: "الجامعة الأمريكية في بيروت فكرة تأسيسها ونظام تعيين رؤسائها وأساتذتها"، مجلة كلية التربية الأساسية، بغداد، المجلد٢١، العدد ٨٨، ٢٠١٥م.

■ مصطفى خالدي وعمرو فروخ: التبشير والاستعمار في البلاد العربية، بيروت، منشورات المكتبة العصرية، ط٣، ١٩٥٣م.

■ بيتي إس.أندرسون: الجامعة الأمريكية في بيروت القومية العربية والتعليم الليبرالي، ترجمة: عزمي طبلة، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، لاط، ٢٠١٤م.

■ إيمان عبد الله التهامي ومحمد التلال: "السياسة الأمريكية التبشيرية تجاه التعليم العالي العام والأزهري في مصر منذ نشأة الجامعة الأمريكية حتى أعقاب ثورة عام ١٩٥٢"، المجلة العلمية لكلية الآداب، القاهرة، المجلد ١٢، العدد ٣، ٢٠٢٣م.

■ عماد حسين: الجامعة الأمريكية في القاهرة بين ١٩١٩م_١٩٦٧م، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، لاط، ٢٠٠٨م.

ناهدة حسين علي الأسدي: "الإرساليات التبشيرية الأمريكية في العراق وموقف الدولة العثمانية"، المجلة السياسية الدولية، لات، تاريخ الاطلاع(٦-١٢-٢٠٢٤)، متاح على الرابط التالي:

https://political-encyclopedia.org/library/2111

■ قحطان حميد كاظم وإبراهيم محمد سليمان: "سياسية الولايات المتحدة الأمريكية اتجاه التعليم الوطني في العراق(١٩٢١-١٩٥٨)"، مجلة كلية التربية الأساسية، ديالى، لات، تاريخ الاطلاع(٢٠٢٤م-١٢-٨)، متاح على الرابط التالي:

https://www.researchgate.net/publication/361944711_syast_alwlayat_almthdt_alamrykyt_tjah_altlym_alwtny_fy_alraq_1921_-_1958_drast_tarykhyt_thlylyt

■ سرمد زكي الجادر: "التوظيف الأمريكي لمنظمات المجتمع المدني"، مجلة دراسات دولية، بغداد، جامعة بغداد مركز الدراسات الدولية، العدد ٥٥، ٢٠١٣م.

■ حسام شحادة: المجتمع المدني، بيت المواطن للنشر والتوزيع، دمشق، ط١، ٢٠١٥م.

■ سراب جبار خورشيد: "منظمات المجتمع المدني في العراق وأثرها في التحولات الديمقراطية"، مجلة العلوم الإنسانية والحضارة، العراق، المجلد٣، العدد ٢، ٢٠٢١م.

■ رواء كاظم مزهود وابتسام محمد عبد: "منظومة القيم - ماهيتها ومرتكزاتها -"، مجلة حمورابي، العدد ٤٨، ٢٠٢٣م.

■ أسماء محمد مصطفي: "استخدام شبكات التواصل الاجتماعي وانعكاسها على تشكيل قيم الشباب الجامعي"، القاهرة، المجلة العلمية

لبحوث الصحافة، العدد ٨، ٢٠١٦م.

■ شيب عادل: "الهوية والثقافة -إشكالية المفاهيم والعلاقة"، ورقة قدمت إلى الملتقى الدولي الثاني حول مجتمع المخاطرة، الجزائر،٢٠٠٩م.

■ هنية صوالحة وهناء فارس: "أثر استخدام مواقع التواصل الاجتماعي على الهوية الثقافية لدى الشباب الجامعي- دراسة ميدانية على عينة من الشباب بجامعة تبسة"، مجلة هيرودوت للعلوم الإنسانية والاجتماعية، الجزائر، المجلد٧، العدد ٢٥، ٢٠٢٣م.

■ أبكر عبد البنات آدم: "وسائل التواصل الاجتماعي وأثرها على تعليم اللغة العربية في ظل التطور التكنولوجي - دراسة وصفية تحليلية -"، مجلة منار الشرق للتربية وتكنولوجيا التعليم، السودان، المجلد٢، العدد١، ٢٠٢٣م.

■ نعامي فاطمة: "خطاب التفاهة في فكر الآن دونو وانعكاساته السياسية"، رسالة ماجستير جامعة قاصدي مرباح، الجزائر، ٢٠٢٢م.

المواقع الإلكترونية

■ المكتبة الشاملة، كتاب موسوعة المفاهيم الاسلامية العامة، لات، تاريخ الاطلاع (٢٠٢٤-١٢-١)،على الرابط الآتي:

https://shamela.ws/book/433668/

https://shamela.ws/book/433668/

https://shamela.ws/book/433668/

■ موسوعة العقيدة والأديان والفرق والمذاهب المعاصرة، حرف الميم/ الهيمن، لات، تاريخ الاطلاع(٢٠٢٤-١٢-١)، على الرابط الآتي:

https://islamiccreed.net/%D8%A7%D984%%D981%%D987%%D8%B1%D8%B35716/

الفهرس/https://islamiccreed.net/5716

https://islamiccreed.net/%D8%A7%D984%%D981%%D987%%D8%B1%D8%B35716/

■ هادي حسن حمودي: شيء من اللغة - الهيمنة والسيطرة، القدس العربي -، (٢٠١٥-٩-٩)، تاريخ الاطلاع(٢٠٢٤-١١-٢٣)، على الرابط الآتي:

https://www.alquds.co.uk/%EF%BB%BF/.

■ قناة الميادين، في تعريف الثقافة وتأويلها،(٢٠١٩-٣-٩)، تاريخ الاطلاع(٢٠٢٤-١١-١٩)، على الرابط الآتي:

https://www.almayadeen.net/books/939417/في-تعريف-الثقافة-وتأويلها

■ جوزيف عبدالله: غرامشي - المجتمع المدني، الهيمنة الثقافية، المثقف الجماعي -، جريدة الأخبار، (٢٠١٩-٣-٢٠)، (تاريخ الاطلاع (٢٠٢٤-١١-٢٣)، على الرابط الآتي:

https://al-akhbar.com/search?q=غرامشي

■ محمد صلاح: إذا أردت أن تكشف أسرار النفس البشرية شاهد هذه الأفلام، (٢٠١٩-١٢-٢٩)، تاريخ الاطلاع (٢٠٢٤-١١-٢٤)، على الرابط الآتي:

https://www.aljazeera.net/arts/201929/12/

■ أسد ماجد: السينما الأمريكية وأثرها في سياسات الهيمنة الخارجية،(٢٠٢١-٧-١٢)، تاريخ الاطلاع (٢٠٢٤-١١-٢٦)، على الرابط الآتي:

https://annasher.com/exclusive/1418/

■ خالد محمود: السينما- جبهة أخرى فى معركة «الحرب الباردة» بين الأمريكان والروس -، (٢٠٢٠-٢-١٩)، تاريخ الاطلاع (٢٠٢٤-١١-٢٦)، على الرابط الآتي:

https://www.shorouknews.com/news/view.aspx?cdate=19022022&id=71765eb153-aa-4d11-b60e-3311ac4ba470

■ نرمين صلاح القماح: سينما الأبطال الخارقين ترسّخ الهيمنة الثقافية، (٢٠٢٠-١٤-٦)، تاريخ الاطلاع(٢٠٢٤-٢٧-١١) على الرابط الآتي:

https://alarab-co-uk.cdn.ampproject.org/c/s/alarab.co.uk

■ يوسف المحسن: سينما هوليوود وقضية العراق - فيلما «المبعوث» و«خزانة الألم» كأُنموذجين -، (٢٠١٨-٣-١٠)، تاريخ الاطلاع (٢٠٢٤-١٢-١)، على الرابط الآتي:

https://www.alquds.co.uk/%EF%BB%BF%D8%B3%D98%A%D986%%D985%%D8%A7-%D987%%D988%%D984%%D98%A%D988%%D988%%D8%AF-%D988%%D982%%D8%B6%D98%A%D8%A9-%D8%A7%D984%%D8%B9%D8%B1%D8%A7%D982-%%D981%%D98%A%D984%%D985%%D8%A7-%D8%A7

■ علي رياض: استشراق هوليود في العراق - جنود ضحايا ومجتمع إرهابي -، (٢٠٢٣-٣-٢)، تاريخ الاطلاع(٢٠٢٤-١٢-١)، على الرابط الآتي:
https://jummar.media/3370

■ أكرم القصاص: السينما الأمريكية وفن تقديس الغزاة في العراق، (٢٠١٧-١١-١١)، تاريخ الاطلاع(٢٠٢٤-١٢-١)، على الرابط الآتي:
https://www.youm7.com/story/201711/11//%D8%A7%D984%%D8%B3%D98%A%D986%%D985%%D8%A7-%D8%A7%D984%%D8%A3%D985%%D8%B1%D98%A%D983%%D98%A%D8%A9-%D988%%D981%%D986-%%D8%AA%D982%%D8%AF%D98%A%D8%B3-%D8%A7%D984% %D8%BA%D8%B2%D8%A7%D8%A9-%D981%%D989-%%D8%A7%D984%%D8%B9%D8%B1%D8%A7%D93504625/82%

■ ترك برس: المدارس الأجنبية في العهد العثماني، (٢٠١٥-١٢-١١)، تاريخ الاطلاع (٢٠٢٤-١٢-١٢)، على الرابط الآتي:
https://www.turkpress.co/node/15042

■ نورة خالد السعد: التنصير في عالمنا الإسلامي (٢ من ٢)، (٢٠٠٩-١٢-٩)، تاريخ الاطلاع(٢٠٢٤-١٢-٩)، على الرابط الآتي:
https://www.aleqt.com/200909/12//article_314056.htm

■ حكايات التبشير المسيحي الأميركي في العراق ١٩٠٠ ــ ١٩٣٥ ثرثرة فوق دجلة، (٢٠٠٤-٧-٣)، تاريخ الاطلاع(٢٠٢٤-١٢-١٦)، على الرابط الآتي:
https://www.alqabas.com/article/164346

■ إياد عبد اللطيف سالم: العيد الوطني العراقي الجديد – القسم الرابع -،٢٠٢١-١٠-١٢)، تاريخ الاطلاع(٢٠٢٤-١٢-١٨)، على الرابط الآتي:
https://kitabat.com/%D8%A7%D984%%D8%B9%D98%A%D8%AF-%D8%A7%D984%%D988%%D8%B7%D986%%D98%A-%D8%A7%D984%%D8%B9%D8%B1%D8%A7%D9%82%D98%A-%D8%A7%D984%%D8%AC%D8%AF%D98%A-%D8%AF

■ طارق حرب: أول بعثة للبنات البغداديات للدراسة خارج العراق، (٢٠١٧-٤-١٤)، تاريخ الاطلاع(٢٠٢٤-١٢-٢٠)، على الرابط الآتي:

https://newsabah.com/newspaper/118500?utm_source=chatgpt.com

■ الموقع الرسمي لبرنامج تبادل القادة الشباب العراقيين IYLEP، تاريخ الاطلاع (٢٣-١٢-٢٠٢٤)، على الرابط الآتي:

https://www.iylep.org

■ برنامج تبادل القيادات الشابة العراقية (IYLEP)، السفارة الأمريكية والقنصليات في العراق، على الرابط الآتي:

https://iq.usembassy.gov/ar/2022-iraqi-young-leaders-exchange-program-iylep

■ شيرين لبيب خورشيد: خصائص النمو في مرحلة المراهقة والبلوغ، (٢-١٢-٢٠١٩)، تاريخ الاطلاع(٢٤-١٢-٢٠٢٤)، على الرابط الآتي:

https://www.alukah.net/social/0137456 //%D8%AE%D8%B5%D8%A7%D8%A6%D8%B5-%D8%A7%D984%%D986%%D985%%D988-%%D981%%D98%A-%D985% %D8%B1%D8%AD%D984% %D8%A9-%D8%A7%D984% %D985% %D8%B-1%D8%A7%D987%%D982%%D8%A9-%D988%%D8%A7%D984%%D8%A8%D984%%D988%%D8%BA/#_ftn4

■ المراهقة | Adolescence، الطبي، (٢٩-١-٢٠٢٣)، تاريخ

الاطلاع(٢٠٢٤-١٢-٢٤)، على الرابط الآتي:
https://altibbi.com/%D985%%D8%B5%D8%B7%D984%%D8%AD%D8%A7%D8%AA-%D8%B7%D8%A8%D98%A%D8%A9/%D8%A7%D984%%D8%B5%D8%AD%D8%A9-%D8%A7%D984%%D8%AC%D986%%D8%B3%D98%A%D8%A9/%D985%%D8%B1%D8%A7%D987%%D982%%D8%A9

■ ما هو برنامج فولبرايت؟، موقع شير أميركا، (٢٠٢١-٨-١٧)، تاريخ الاطلاع(٢٠٢٤-١٢-٢٦)، على الرابط الآتي:
https://archive-share.america.gov/ar/%D985%%D8%A7-%D987%%D988-%%D8%A8%D8%B1%D986%%D8%A7%D985%%D8%AC-%D981%%D988%%D984%%D8%A8%D8%B1%D8%A7%D98%A%D8%AA%D89%F/index.html?utm_source=chatgpt.com

■ الموقع الرسمي لقسم الشؤون التعليمية والثقافية التابع لوزارة الخارجية الأمريكية، على الرابط الآتي:
https://eca.state.gov/fulbright/fulbright-alumni/notable-fulbrighters/heads-stategovernment?utm_source=chatgpt.com

■ أحمد محمد كنعان: منظمات المجتمع المدني في الإسلام، (٢٠١٥_٦-٥)، تاريخ الاطلاع (٢٠٢٤-١٢-٢٨)، على الرابط الآتي:

https://www.alyaum.com/article

■ الأمم المتحدة والمجتمع المدني، موقع الأمم المتحدة، لات، تاريخ الاطلاع (٢٠٢٤-١٢-٢٨)، على الرابط الآتي:

https://www.un.org/ar/get-involved/un-and-civil-society

■ الموقع الرسمي للصندوق الوطني لدعم الديمقراطية الأمريكية، لات، تاريخ الاطلاع (٢٠٢٤-١٢-٢٩)، على الرابط الآتي:

https://www.ned.org/about

■ تعديل الأمر رقم ٤٥ المتعلق بتسجيل المنظمات غير الحكومية، (٢٠١٠-٨-١٨)، تاريخ الاطلاع(٢٠٢٤-١٢-٢٩)، على الرابط الآتي:

https://wiki.dorar-aliraq.net/iraqilaws/law/20623.html

■ دائرة المنظمات غير الحكومية في الامانة العامة لمجلس الوزراء، لات، تاريخ الاطلاع(٢٠٢٤-١٢-٢٩)، على الرابط الآتي:

https://www.ngoao.gov.iq/PageViewer.aspx?id=3

■ معهد صحافة الحرب والسلام، لات، تاريخ الاطلاع (٢٠٢٤-١٢-٣٠) على الرابط الآتي:

https://advocacyassembly.org/ar/partners/instituteforwarandpeacereporting

■ رابطة المرأة العراقية، (٢٠٢٤-٧-٢٤)، تاريخ الاطلاع (٢٠٢٥-١-١)، على الرابط الآتي:

https://iraqiwomensleague.com/mod.php?mod=news&modfile=item&itemid=78289

■ منظمة حمواربي لحقوق الإنسان، (٢٠١٧-٦-١٠)، تاريخ الاطلاع (٢٠٢٥-١-١)، على الرابط الآتي: https://www.hhro.org/

رئاسة جمهورية العراق، لات، تاريخ الاطلاع(٢٠٢٥-١-١)، على الرابط الآتي:

https://presidency.iq/info.aspx?jimare=1002

■ مركز الخليج العربي للدراسات والبحوث، إدمان الإنترنت ومواقع التواصل يهدد المعتقدات الدينية ويحرض على الإلحاد، (٢٠٢٣-٨-١٧)، تاريخ الاطلاع(٢٠٢٥-١-٤)، على الرابط الآتي:

https://www.csrgulf.com/202317/08//%D8%A7%D8%AF%D9%85%D8%A7%D986-%%D8%A7%D984%%D8%A7%D986%%D8%AA%D8%B1%D986%%D8%AA-%D8%A7%D984%%D985%%D8%B9%D8%AA%D982%%D8%AF%D8%A7%D8%AA-%D8%A7%D984%%D8%A7%D984%%D8%AD%D8%A7%D8%AF

■ إسماعيل الحمراوي: صناعة التفاهة - تهديد صامت للوعي الاجتماعي -، (٢٠٢٤-١٠-١٣)، تاريخ الاطلاع (٢٠٢٥-١-٨)، على الرابط الآتي:

https://www.assahifa.com/%D8%B5%D986%
%D8%A7%D8%B9%D8%A9-%D8%A7%D984%
%D8%AA%D981% %D8%A7%D987% %D8%A9-
%D8%AA%D987% %D8%AF%D98 %A%D8%AF-
%D8%B5%D8%A7%D985%%D8%AA-%D984%%D98-%
4%D988%%D8%B9%D98%A-%D8%A7%D984%%D8%A7%
D8%AC%D8%AA%D985%/

■ هلا كريم: الـ «ريلز» بين تدفق المعلومات وتعفن الدماغ، (٢٠٢٥-١-٥)، تاريخ الاطلاع (٢٠٢٥-١-٨)، على الرابط الآتي:

https://n9.cl/https___www_independentarabia

■ سكاي نيوز، يؤثر على تركيزهم - دراسة تحذر من إدمان غريب بين المراهقين -، (٢٠٢٣-٥-٢٩)، تاريخ الاطلاع (٢٠٢٥-١-٨)، على الرابط الآتي:

https://www.skynewsarabia.com/technology/1624950-
%D98%A%D988% %D994% %D8%AB%D8%B1-%D8
%AA%D8%B1%D983% %D98%A%D8%B2%D987%
%D985-%%D8%AF%D8%B1%D8%A7%D8%B3%D8%A9-
%D8%AA%D8%AD%D8%B0%D8%B1-%D8%A
7%D995% %D8%AF%D985% %D8%A7%D986-%

%D8%BA%D8%B1%D98%A%D8%A8-%D8%A7%D98%4%D985%%D8%B1%D8%A7%D987%%D982%%D98%A%D986%

■ الموقع الرسمي للعتبة الحسينية المقدسة،(٢٠١٩-١٠-١٦)، تاريخ الاطلاع(٢٠٢٤-١٢-٣)، على الرابط الآتي:

https://imamhussain.org/arabic/27058

■ شبكة النبأ المعلوماتية، (٢٠١٥-١١-٢٤)، تاريخ الاطلاع(٢٠٢٤-١٢-٣)، على الرابط الآتي:

https://annabaa.org/arabic/annabaaarticles/4311

المَصَادِرُ الأَجنَبِيَّةُ

■ HEART OF HOLLYWOOD MAGAZINE، _ Hollywood›s Impact on Pop Culture: How Movies and TV Shape Society and Influence Trends، (32023-7-) ،Date of visit (20244-12-): https://www.heartofhollywoodmagazine.com/post/hollywood-s-impact-on-pop-culture-how-movies-and-tv-shape-society-and-influence-trends

الفهرس

المُقَدِمَة ٥

١١ الفَصْلُ الأَوَّلُ: مَفْهُوْمُ الْهَيْمَنَة

المبْحَثُ الأَوَّلُ: مَفْهُومُ الهَيْمَنَة ١١

المبْحَثُ الثَّانِي: مَفْهُومُ الهَيْمَنَةِ الثَّقَافِيَّة ١٨

٢٣ الفَصْلُ الثَّانِي: بَعْضُ أَدَوَاتِ الهَيْمَنَةِ الثَّقَافِيَّةِ الأَمرِيكِيَّةِ عَلَىْ الفِئَةِ الشَّبَابِيَّة

المبْحَثُ الأَوَّلُ: السِّينما ٢٥

المبْحَثُ الثَّانِي: الجَامِعَاتُ - الجَامِعَةُ الأَمْرِيكِيَّةُ ٧٤

المبْحَثُ الثَّالِثُ: البَعْثَاتُ الدِّرَاسِيَّةُ ٧٨

المبْحَثُ الرَّابِعُ: مُنَظَّمَاتُ المُجْتَمَعِ المَدَني ٩٤

المبْحَثُ الخَامِسُ: مِنَصَّاتُ التَّوَاصُلِ الاِجتِمَاعِّي ١٠٨

الخَاتِمَةُ ١٢٦

لَائِحَةُ المَصَادِرِ وَالمرَاجِع ١٣١

مركـز بحثي مسـتقل غـير ربحـي، مقـره في بـيروت وبغداد. ويهـدف لفتح المجـالات العلميـة والأكاديمية الواسـعة، أمام الباحثين والمتخصصـين؛ للقيام ببحوث تسـعى إلى فهم واقع الإنسـان والإنسـانية، من خلال التركيـز على دراسـة الميادين الفلسـفية، والاجتماعيـة، والإنسـانيـة المتنوعة، التي تشكّل في مجموعها الحراك الاجتماعي والانساني الكبير الحاصل في العالم، وخصوصا في بلادنا العربية والإسلامية، ورصد الظواهر والتحديات الفكريـة، والاجتماعيـة، والاقتصاديـة، والنفسية المختلفة، التي يمكـن أن يواجهها الفـرد والمجتمع، ومحاولة فهم ومدارسة الأسس الفلسـفية والإجتماعية والدينية التأصيلية بموضوعية وجدة؛ سعيًا للوصول إلى حلول لها؛ من أجل السمو بالإنسان وتقدّمه في أبعاده الإنسانية المختلفة.

في هذا الكتاب

الهيمنة مفهوم إشـكاليّ بحدّ ذاته، فالتعريفات المتعـدّدة له، ومع اختلاف المجالات التي قيلت فيه، سـواء أكانت في سـياق العلاقات الخارجية، أم حقول الفلسفة والسياسة والثقافة، برزت لدينا اختلافات جوهريّة بين المعنى الشائع الذي نتصوّره، والمرتبط بالإخضاع والسيطرة غالبًا، وبين التعريفات الأكاديميّـة له، والفجوة الواسـعة بين كل ذلك مع الـدلالات اللغويّة لهذا المفهوم، والتـي تتّحد مع الاسـتخدام الواقعيّ للهيمنة مـن جانب القوى الكبرى، وفي مقدّمتهم الولايات المتّحدة الأمريكيّة.

في قبال ذلك، نجد تعدّد الأدوات المسـتخدمة وتنوّعها في تحقيق الهيمنة الثقافيّـة الأمريكيّـة، من السـينما وصـولاً إلى القضايا المرتبطـة بالتعليم، وليـس انتهاء بمنصّات التواصل الاجتماعي، سـنجد أدوات هذه المنظومة كامنة خلـف منهج تدريـسيّ، أو في أروقة الجامعات، أو خلف شاشـات الهاتف كما هو معلوم.